

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد
رئيس التحرير : مصطفى نبيل
سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

KITAB AL-HILAL

No-542-FE-1996

العدد ٥٤٢ - رمضان - فبراير ١٩٩٦

FAX 3625469 فاكس

أسعار بيع العدد فئة ٦٠٠ قرش

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٧٥٠٠ ليرة - الاردن ٣ دينارات - الكويت ٢ دينار - السعودية ٢٠ ريالا - البحرين ٢ دينار - قطر ٢٠ ريالا - دبي/ابو ظبي ٢٠ درهما - سلطنة عمان ٢ ريال

اليهود

انثروبولوجيا

بقلم

د. جمال حمدان

تقديم

د. عبدالوهاب المسيرى

دار الهلال

الغلاف للفنان
حلمى التونى

مقدمة

بقلم : د. عبد الوهاب المسيرى

اليهود أنثروبولوجيًا * ، أى «اليهود من الناحية الأنثروبولوجية» هو عنوان الكتيب الذى بين أيدينا، ألفه هذا العبقرى الفلتة، جمال حمدان . ورغم صغر حجم الكتيب فإنه يبلور كثيراً من أفكاره وآرائه ولا يمكن فهمه إلا فى إطار منظومته الفلسفية والسياسية ومنطلقاته الفكرية .

وهذا الكتيب، مثل كل كتابات جمال حمدان، ليس دراسة أكاديمية بالمعنى السلبى للكلمة، أى الدراسة التى يكتبها أحد المتخصصين الأكاديميين دونما سبب واضح ولا تتسم بأى شىء سوى أنها «صالحة للنشر» لأن صاحبها اتبع مجموعة من الأعراف والآليات البحثية (من توثيق ومراجع وعنعنات علمية موضوعية) تم الاتفاق عليها بين مجموعة

---

* لتقليل عدد الهوامش سنورد أرقام الصفحات في النص نفسه بعد عنوان الكتاب (إلا كتاب اليهود أنثروبولوجيًا فسنكتفي بالإشارة إلى رقم الصفحة) .

١) **إستراتيجية الاستعمار والتحرير** (دار الهلال) ١٩٦٨ .

٢) **شخصية مصر** (الهيئة العامة للكتاب) ١٩٩٥ .

٣) **العالم الإسلامي المعاصر** (دار الهلال) ١٩٩٣ .

٤) **ثلاثية حمدان** : د. عمر الفاروق «دار الهلال» ١٩٩٥ . اقتبسنا من هذه الكتاب بعض أقوال جمال حمدان التى وردت فى الطبعة الموسعة لكتاب **شخصية مصر**.

من المتخصصين والعلماء . والهدف عادةً من مثل هذه الكتابات (التى يُقال لها «أبحاث» مع أنها لا تنبع من أية معاناة حقيقية ولا تشكل «بحثاً» عن أى شيء) هو زيادة عدد الدراسات التى تضمها السيرة العلمية للأكاديمى صاحب الدراسة، فتتم ترقيته، فالصالح للنشر هو عادةً ما يؤهل للترقية . قد تقوم الدنيا ثم تقعد وقد يُقتل الأبرياء وينتصر الظلم وينتشر الظلام، وصاحب «البحث» لا يزال يكتب ويوثق ويعنعن وينشر، ثم يكتب ويوثق ويعنعن وينشر، وتدور المطابع وتسيل الأحبار ويخرج المزيد من الكتب . ثم يذهب صاحبنا إلى المؤتمرات التى تُقرأ فيها أبحاث أكاديمية لا تبحث عن شيء ليزداد لمعاناً وتألقاً، إلى أن يُعيَّن رئيس المجلس الأعلى لشئون اللاشيء الأكاديمى، يتحرك فى عالم خالٍ من أى هموم انسانية حقيقية - عالم خالٍ من نبض الحياة : رمادية كالحة هى هذه المعرفة الأكاديمية، وذهبية خضراء هى شجرة المعرفة الحية المورقة .

النموذج المعلوماتي التراكمي

كتيب جمال حمدان ليس دراسة أكاديمية بهذا المعنى، وإنما هى دراسة عميقة كتبها مثقف مصرى «صاحب موقف»، لا يكتب إلا انطلاقاً من لحظة معاناة وكشف . وهو لا شك يتّبع معظم الأعراف الأكاديمية ويستخدم كل الآليات البحثية من توثيق وعنعنة، ولكن الآليات هى مجرد آليات، والوسائل لا تتحول أبداً إلى غايات، والمعلومات موجودة وبكثرة (وربما تفوق بمراحل ما تأتى به المراجع المعلوماتية) ولكنها مجرد معلومات . فنقطة البدء هى قلق وجودى عميق أدى إلى ظهور مشروع فكرى متكامل، والهدف يظل دائماً هو الوصول إلى الحقيقة وكيف يمكن

تحويل الحقيقة إلى عدل .

ولذا فكل دراسات جمال حمدان هى دراسات إشكالية، محاولة للإجابة عن سؤال ما، وتصب كل الأسئلة فى مشروع فكرى واحد، محوره مصر . فجمال حمدان صاحب فكر وليس ناقلاً للأفكار مثل عدد لا يُستهان به ممن يُسمون بالمفكرين فى بلادنا، ممن جعلوا همهم نقل آخر فكرة وآخر صيحة، عادةً من الغرب "أولئك الذين يرون أن العالم هو الغرب .. ولا شيء سواه، وهى النظرة الاستعمارية التى سادت طويلاً، والتى تركز على أن الدنيا هى أوربا Euro-Centric والآن على أوربا وأمريكا معاً Atlanto Centric أو الغرب بعامة West Centric" (ثلاثية حمدان ، ص ٢٣) . صاحب الفكر هو إنسان قد طوَّر منظومة فكرية تتسم أجزاؤها بقدر من الترابط والاتساق الداخلي (فهى تعبِّر عن قلقه وآماله)، ويكمن وراءها نموذج معرفى واحد - رؤية واحدة للكون . أما ناقل الأفكار، فهو إنسان ينقل أفكاراً متناثرة لا يربطها بالضرورة رابط، وتنتمى كل فكرة إلى منظومة فكرية مستقلة . وما يحدث فى كثير من الدراسات الأكاديمية أن كاتبيها يقومون بنقل الأفكار المتباينة ويعرضون لها، دون إدراك للنموذج المعرفى الكامن وراءها، أو مع إدراك كامل له دون أن يكترثوا بتضميناته وتطبيقاته، فمهمتهم هى النقل (حتى تلحق بركب الحضارة الغربية) - نقل كل شيء بأمانة شديدة وحياد أشد، وموضوعية متلقية هى فى واقع الأمر تعبير عن موت القلب والعقل والضمير والهوية، والقدرة علي الاجتهاد . فى هذا الإطار يحل السرد المباشر للأفكار محل عمليات التفسير بما تتضمنه من تفكيك وإعادة

تركيب، ويختفى المنظور النقدى، فتتعايش الأفكار المتناقضة جنباً إلى جنب ولا يمكن التمييز بين الجوهرى منها والهامشى . ونقل الأفكار ورصها دون إدراك لتضميناتها الفلسفية لا يختلف كثيراً عن نقل المعلومات ومراكمتها دون إدراك للمعنى الكامن وراءها والتحيزات القابعة داخلها والسياق الذى نبعت منه . ولذا فمثل هذه الدراسات "قد تنقل عمداً أو عن غير عمد وجهات نظر محدودة ومحسوبة سياسياً" (كما يقول جمال حمدان ص٧) وهكذا يتحول المثقفون إلى أعضاء فى شركات نقل الأفكار التى لا تختلف كثيراً عن شركات نقل المعلومات أو حتى البضائع.

جمال حمدان لا ينتمى إلى هذه المدرسة المعلوماتية التراكمية التى استشرت تماماً فى صفوف الباحثين بسبب سهولة الإنتاج العلمى من خلالها (استبيانات - جداول - تحليل سطحى للمضمون - استطلاع رأى - أرقام) . ولاشك أن غياب المشروع الحضارى المستقل يزيد من انتشار هذا النموذج، إذ يحل التفكير السهل المباشر من خلال الكم المصمت محل التفكير المركب من خلال الرؤية والهوية والحلم والأمل، ويصبح التلقى المهزوم والإذعان (الموضوعى) للأمر الواقع بديلاً لمحاولة رصد الواقع بأمل تغييره وإعادة صياغته . وقد زحف هذا النموذج على المقررات المدرسية وفلسفة التعليم فى مدارسنا، ومن هنا التلقين، والدروس الخصوصية التى لا تعلِّم الطالب شيئاً، إذ أن المهارة الأساسية التى يكتسبها هى مهارة اجتياز الامتحانات .

إن المدرسة المعلوماتية التراكمية معادية للفكر والإبداع، تدور فى

إطار الموضوعية المتلقية، السلبية، العقل عندها آلة ترصد وتسجل، وليس طاقة إنسانية مبدعة تعيد صياغة العالم، وهى لا تكترث بالحق أو الحقيقة لأنها غرقت تماماً فى الحقائق والوقائع والأفكار المتناثرة، ترصدها من الخارج دون تعمق ودون اجتهاد وكأنها أشياء مرصوصة، كم لا هوية له، ولذا تفقد الظواهر شخصيتها ومنحناها الخاص . وكما يقول جمال حمدان : "نحن نلاحظ أن أغلب كتاباتنا فى العربية عن العدو الإسرائيلى تأخذ فى جملتها الصيغة السياسية المباشرة أو غير المباشرة التى تعامل العدو كمعطيات مفروغ منها أو ككم معلوم بدرجة أو بأخرى دون أن تحاول أن تنفذ إلى حقيقة كيانه وتركيبه : فالكل يهود أو صهيونيون، والكل يعيش فى كنف الاستعمار وحمايته، والكل أتى بصورة غامضة من نسل يهود الشتات الذين أتوا بدورهم بطريقة ما من سلالة يهود فلسطين التوراة ... إلخ . وفى هذا الإطار التجريدى الضيق [أى الاختزالى] أو المتعجل غير المتأنى ... تبدو صورة العدو فى أذهاننا باهتة عائمة بالغة السطحية، وتبدو أحياناً - أكاد أقول - كما لو كنا نطارد شبحاً" (ص ٦).

ثنائية تكاملية

وبدلاً من هذه المطاردة العبثية للأشباح غير الحقيقية، يقترح جمال حمدان "دراسة علمية محققة تقتنص هذا الشبح، تجسده، ثم تشرحه أصلاً وتاريخاً، جنساً وتركيباً، تطوراً وتوزيعاً" (ص ٦)، بدلاً من الاختزال التركيب؛ وبدلاً من التلقى الإبداع؛ وبدلاً من التفاصيل المكرية أو المعلوماتية الميتة رؤية متكاملة وحية . تبدأ هذه الرؤية بتعريف (أو إعادة تعريف) علم الجغرافيا ذاته (وهذا أمر يغيب عن الكثيرين، أن البحث

المبدع الأصيل فى مجال العلوم الإنسانية يعيد صياغة حدود العلم ذاتها) . فالجغرافيا "هى علم تباين الأرض (أى التعرف على الاختلافات الرئيسية بين أجزاء الأرض المختلفة)". هى ولا شك «علم» ولذا فهى تتعامل مع الكم والعام . يقف معظم باحثينا عند هذه التضاريس أو الحدود المادية الصارمة ، ولكن جمال حمدان المبدع الجسور يتقدم ويغامر ليتعامل مع الكيف والخاص فيؤكد أن قمة علم الجغرافيا هو التعرف على «شخصية الأقاليم» . يقول ذلك وهو يعرف تماماً أنه قد ولج عالماً جديداً مختلفاً، «فالشخصية الإقليمية» شيء أكبر من مجرد المحصلة الرياضية لخصائص وتوزيعات الإقليم، إنها تتساءل أساساً عما يعطى منطقة تفردها وتميزها بين سائر المناطق، وتريد أن تنفذ إلى «روح المكان» لتستشف "عبقريته الذاتية التى تحدد شخصيته الكامنة" .

عالم الكم هو عالم الأشباح التى لا بدن لها ولا قوام ولا روح . ولإنها لا بدن لها نجدها تهوم فى الأماكن ولا يمكن الإمساك بها . وهى أيضاً لا روح لها، فالروح هى مصدر فردية المرء وتميزه عن غيره من بنى الإنسان . هذا لا يعنى أن الجسد ليس له تميزه، فشكل الجسد وبنيته يختلفان من فرد إلى فرد ومن مجموعة بشرية إلى أخرى . ولكن تميز الجسد ليس بنفس درجة تميز الروح، فالجسد فى نهاية الأمر والتحليل والمطاف كم مادى ينتمى لعالم المادة، وقوانين الحركة . بل إن تميزه الحقيقى يأتى من وجود الروح فيه ، التى تصوغ الجسد داخل خطاب حضارى متميز (من ملبس ومأكل وزينة) تختلف من زمان لآخر ومن مكان لآخر، فهى تخرج بالجسد من عالم الطبيعة وقوانينها العامة وتدخل به عالم

الحضارة الإنسانية بثرائها وخصوصيتها .

ولأن الجغرافيا كعلم تتجاوز عالم المادة والحواس المباشرة وليست سجينة الكم، فهى لا تقبع قط فى الآن وهنا وحسب، وإنما تتجاوزهما، "فهى تترامى بعيداً عبر الماضى وخلال التاريخ . لأنه بالدور التاريخى وحده يمكن أن نتعرف على الفاعلية الإيجابية للإقليم وعلى التعبير الحر للشخصية الإقليمية" (**شخصية مصر** ، ص ٣) .

ولنلاحظ ما يفعله جمال حمدان : فهو يرفض أحادية البُعد ويتبنى ثنائية أساسية تشكل جوهر رؤيته . وكما يقول : "حق لنا أن نبقى تفاصيل التفاصيل ... ولكن أحق علينا كذلك ألا نغرق فيها أو نتوه، وإنما علينا أن نتجاوزها، نقفز منها وفوقها إلى أعلى الكليات وأعم العموميات... وإلى جانب النظرة التحليلية الميكروسكوبية والجغرافية المجهرية، لاغنى عن النظرة التركيبية التليسكوبية والجغرافية والماكروسكوبية الواسعة الأفق" (**ثلاثية حمدان** ، ص٢٩) . ولكن الثنائية التى يدعو لها ليست ازدواجية وإنما ثنائية تكاملية : كم يتكامل مع كيف – جغرافيا تتكامل مع تاريخ – مكان يتكامل مع زمان – جسد يتكامل مع روح – جزء يتكامل مع كل – خاص يتكامل مع عام . والتكامل هنا لا يعنى ذوبان واندماج الواحد بالآخر (فهذا يؤدى إلى الواحدية) وإنما يعنى تقاطع وتفاعل يؤدى إلى تفرد وتجاوز لعالم الكم المادى . وإذا أخذنا العنصر الثانى فى الثنائيات فسنكتشف أنه لا ينتمى لعالم المادة المصمتة وإنما ينتمى إلى عالم الإنسان (كيف – تاريخ

- زمان - روح) . وكما يقول جمال حمدان : "البيئة قد تكون فى بعض الأحيان خرساء، ولكنها تنطق من خلال الإنسان . وربما تكون الجغرافيا صماء، ولكن ما أكثر ما كان التاريخ لسانها . ولقد قيل بحق أن التاريخ ظل الإنسان على الأرض، بمثل ما أن الجغرافيا ظل الأرض على الزمان" (شخصية مصر ، ص ٤) .

بيئة خرساء وجغرافيا صماء . هذا هو عالم الواحدية المادية (والدراسات الموضوعية المعلوماتية التراكمية المتلقية) فى مقابل إنسان ينطق وتاريخ يتحدث بلسان فصيح (مثل كتابات جمال حمدان)، والتاريخ هو محاولة الإنسان تجاوز عالم المادة ولذا فهو يلقى بظله عليها - على الأرض، ولكن مادية العالم وموضوعيته لا يمكن للإنسان أن يبتلعهما، ولذا فالأرض تلقى هى الأخرى بظلالها على الزمان الإنسانى .

المحصلات الرياضية

هذه الثنائية الأساسية هى التى جعلت جمال حمدان يرفض هذا المفهوم المعرفى الذى يشكل الأساس الفلسفى للنموذج المعلوماتى التراكمى والذى قوض دعائم الإبداع الإنسانى وإمكانية الاجتهاد وأحل محله فكر مادى حتمى ممل يقضى على الإنسان - يلقى بظلاله الكثيفة الكئيبة عليه حتى يخفيه تماماً، أعنى فكرة وحدة العلوم التى أصبحت من المنطلقات المعرفية الأساسية للبحث العلمى فى مصر والعالم . وجوهر هذه الفكرة هو أنه يجب عدم التمييز بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية، فالاختلاف بين الإنسان والأشياء ليس اختلافاً فى الجوهر

والنوع والكيف، وإنما هو اختلاف فى التفاصيل والدرجة والكم، ولذا فإن ما يسرى على الأشياء (والظواهر الطبيعية) يسرى فى أساسياته على الإنسان، ولذا فلابد أن يكون هناك منهج واحد لدراسة الإنسان والأشياء ولسلوك الإنسان والنمل . قد لا يقول دعاة هذا المنهج ذلك صراحةً (فمن منا يمكن أن ينكر إنسانيته ببساطة وبشكل صريح وواضح؟) ولكن مثل هذا الموقف متضمن فى منطلقاتهم المعرفية . يرفض جمال حمدان هذا المنطق المادى المصمت المعادى للإنسان : "فالجغرافيا الكاملة الكامنة لا تتحقق فى شىء كما تتحقق فى دراسة الشخصية الإقليمية ... والشخصية الإقليمية ليست تقرير حقيقة علمية مطلقة يمكن أن تخضع تماماً للقياس الرياضى والإحصاء، وذلك على الرغم من أنها تعتمد أساساً ... على مادة علمية موضوعية بحتة . إنها عمل فنى بقدر ما هى عمل علمى" . وهو لا يجد فى هذه الثنائية أى تعارض، فالجغرافيا "فلسفة المكان ... فلسفة عملية واقعية ... ترتفع برأسها فوق التاريخ ... وتظل أقدامها راسخة فى الأرض" . وفى عبارة رائعة تعكس هذه الثنائية وتفرض عليها قدراً من التكاملية - وهو سيد مثل هذه العبارات - يقول حمدان : "فلسفة تحلق بقدر ما تحدق" . الجغرافيا فى نهاية الأمر "علم وفن وفلسفة فى ذات الوقت : علم بمادتها، فن بمعالجتها، فلسفة بنظراتها" . كل هذا يعنى رفض النموذج المعلوماتى التراكمى (الواحدى المادى)، "فهذا المنهج المثلث يعنى ببساطة أنه ينقلنا بالجغرافيا من مرحلة المعرفة إلى مرحلة التفكير، من جغرافيا الحقائق المرصوصة إلى جغرافيا الأفكار الرصينة" (شخصية مصر ، ص ٦) وما بين الرص

التراكمي والرصانة الإنسانية ثمة فرق شاسع .

ولعل هذا هو السبب الحقيقي لتركه الجامعة، فالنزوع نحو الرص كان قد بدأ فى التصاعد (حتى وصل مؤخراً إلى أبعاد لا يمكن تخيلها) . لعله أحس بالكارثة المحدقة وبالتشيئ المطبق، وبأن عالم الكم والأشباح يزداد اقتراباً واتساعاً فقرر أن يحمى علمه وابداعه، لأنه عالم لا فلسفة فيه ولا فن ولا إبداع - وإنما محصلات رياضية صماء خرساء لا تقول شيئاً ولا حول ولا قوة إلا بالله !

ثمة نقطة أساسية هنا تحتاج لمزيد من التأكيد وهى أن فكرة وحدة العلوم بنزعتها المادية المتطرفة (كل الأمور مادية طبيعية خاضعة للقانون الطبيعي الحتمى الصارم) لا تقوم بالمساواة بين كل الظواهر وحسب وإنما تقوم فى نهاية الأمر وفى التحليل الأخير بتسويتها وردها إلى عنصر مادى واحد . فتختفى الثنائيات والخصوصيات ويختفى عدم التجانس وتظهر المحصلات الرياضية التى تشبه الهامبورجر أو النظام العالمى الجديد بنزوعه نحو العولمة والكوكبة والكوكلة «نسبة الى الكوكا كولا» وتحويل العالم إلى سوبر ماركت ضخم، كل الناس فيه سواسية كأسنان المشط البلاستيك المستورد أو المصنوع محلياً . جمال حمدان لا يطيق هذا، فعالمه عالم إنسانى ثرى جميل مورق ينبض بالحياة ويتسم بعدم التجانس والخصوصية والتفرد .

وينعكس كل هذا فى مفهومه للوحدة، فهو يرفض الوحدة العضوى المصمتة التى تدور فى إطار الرؤى المادية وتشيئ الظواهر، وتجعلها كلاً

متجانساً أملس . بل إنه يؤكد البُعد الإنسانى فى مبدأ الوحدة ذاته : "إن الوحدة السياسية لا تأتى بالضرورة من الوحدة الطبيعية، وإنما من الوحدة البشرية تأتى . فالعبرة فى قيام دولة موحدة دستورياً هى وحدة الناس، أى وحدة القومية بمعنى تجانسهم فى المقومات الأساسية من لغة مشتركة وتاريخ ملتحم ومصلحة مترابطة وعقيدة سائدة ... ثم إن الوحدة السياسية وحدة وظيفية، والوحدة الوظيفية فى أى مجال لا تأتى من الوحدة التركيبية بل من التنوع التركيبى، فأى جدوى من أن تتحد أقطار متشابهة منمطة فى إنتاجها ومواردها وإمكانياتها إلا أن يكون مجرد تمدد أميبى عقيم؟ وهذا بالدقة ما يُعرف بمبدأ «التنوع فى الوحدة» أو «الوحدة فى التنوع»" (**شخصية مصر**، ص ١٣) .

سيدة الحلول الوسطي

هذا المنهج يتبدّى تماماً فى رؤيته لمصر، فهى نتيجة تفاعل بين بعدين أساسيين (ائتلافاً واختلافاً) : الموضع والموقع، وبين هذا الشد والجذب تخرج شخصية مصر الكامنة كفلتة جغرافية، هى فلتة ولكنها ليست وثناً، ولم يكن هو عاشق وثنى لمصر (كما يحلو للبعض تصويره) يتعبد فى محراب مصر، ولذا فهو يرفض السقوط فى ميتافيزيقا المكان المصرى (أو أى مكان آخر) فيقول : "كثير من هذه السمات تشترك فيها مصر مع هذه البلاد أو تلك، ولكن مجموعة الملامح ككل تجعل منها مخلوقاً فريداً فذاً حقيقة" (**شخصية مصر** ، ص ٨) .

جمال حمدان كان محباً لمصر، والحب «أسرار» كما يعرف كل

من عرف الحب الحق، وأن تبوح به هو فى حكم المحال، وإن اتسعت الرؤية ضاقت العبارة ! ولذا أن تحاول أن تفهم السر وأن تفصح عنه فى ذات الوقت هو شكل من أشكال الثنائية . ولكن العالِم - الفنان - الفيلسوف - الذى يستند عالمه إلى ثنائية تكاملية يعرف ذلك تماماً، ولذا فهو يحاول أن يفهم السر وهو يعلم مسبقاً أنه لن يكشفه، ولن يسويه، وهو يحاول أن يبوح ولكنه يعلم أن البوح والإفصاح لن يجففا بحر الحب وعيون المحبة ! ولذا فالعلم الذى سيؤسسه ليس علماً رصدياً ترشيحياً برانياً - نقتل الفراشة ثم ندرسها ونفسرها . أو كما يقول : "إن الدراسة الإقليمية التحليلية .. تثرى معرفتنا بالمعلومات، غير أنها قل أن تتقبض على روح المكان أو تجسد العبقرية بإحكام، إنها تُشرِّح الإقليم .. إلا أنها فى غمار ذلك تضحى بروح الإقليم" (**ثلاثية حمدان** ، ص ٢٩) تزهقه تماماً . وما يريد أن يؤسسه جمال حمدان هو علِم مبنى على الحب، علِم يحلق ويحدق، "يتحرك من التخصيص إلى التعميم .. من الجزء إلى الكل" (**ثلاثية حمدان** ، ص ٢٩)؛ يدرك السطح البرانى بتفاصيله والعمق الجوانى بأبعاده؛ يعرف الوحدة ولا ينكر عدم التجانس. "ولذا لا ينبغى لنا أن نبالغ فندعى تجانساً مطلقاً، يكفى أن نقول تجانساً نسبياً" . "وهذا التجانس ليس النقاوة الجنسية" (التى يدعيها العنصريون البيولوجيون الماديون لأنفسهم)، فمن الواضح "أن دماء كثيرة دخيلة وغريبة قد أضيفت إلى عروق مصر وصبت فى شرايينها ... وليس من الدقة العلمية فى شىء أن نصور مصر بوعاء جامد يتشكل كل من دخله بشكله، فليس هناك أطر

ثابتة إلى هذا الحد كأنها أقفاص حديدية" (**شخصية مصر** ، ص ٣٢) .

كاتبنا ينفر بشكل واضح من النماذج الاختزالية المغلقة والتجانس الواحدى المطلق، عالم الأشباح إياه . ومصر التى يحبها ليست شيئاً مادياً، جغرافيا محضا، وإنما هى رقعة يلتقى فيها الزمان بالمكان. هى مجموعة من الثنائيات التى لا تذوب ولا تُختزل فى كل واحدى مصمت - "هى بطريقة ما تكاد تنتمى إلى كل مكان دون أن تكون هناك تماماً، فهى بالجغرافيا تقع فى أفريقيا، ولكنها تمت أيضاً إلى آسيا بالتاريخ ... وهى بجسمها النحيل تبدو مخلوقاً أقل من قوى، ولكنها برسالتها التاريخية الطموح تحمل رأساً أكثر من ضخم ... وإذا كان لهذا كله مغزى، فهو ليس أنها تجمع بين الأضداد والمتناقضات، وإنما أنها تجمع بين أطراف متعددة غنية وجوانب كثيرة خصبة وثرية، بين أبعاد وآفاق واسعة، بصورة تؤكد فيها «ملكة الحد الأوسط» وتجعلها «سيدة الحلول الوسطى»، تجعلها أمةً وسطاً بكل معنى الكلمة، بكل معنى الوسط الذهبى، ولكن ليس أمةً نصفاً» ! (**شخصية مصر** ، ص ٨ -٩) .

الدائرة العربية والدائرة الإسلامية

وسيدة الحلول الوسطى هذه "فرعونية بالجد ... عربية بالأب" (شخصية مصر ، ص ٨) . ولكنها ثنائية تكاملية، وليست ازدواجية "فالأب والجد من أصل وجد أعلى واحد مشترك. "غير أن العرب هنا وقد غيّروا ثقافة مصر، هم «الأب الاجتماعى» فى الدرجة الأولى، وليسوا

«الأب البيولوجى» إلا فى الدرجة الثانية" (**شخصية مصر** ، ص ٢١٣).
فالتعريب والإسلام ... "هما أعظم حقيقة فى تاريخ مصر الثقافى والروحى ويمثلان انقطاعا حضاريا، ونقطة تحول حاسمة وخط تقسيم فى وجودنا اللامادى" (**شخصية مصر** ، ص ٢٠٨) . وبالنسبة لجمال حمدان يُعد هذا الوجود اللامادى هو العنصر الأهم فى ثنائيته التكاملية . «فبعد التعريب ...أصبحت [مصر] جزءاً لا يتجزأ من العالم العربى وعاشت غالباً إقليماً أو رأساً فى رؤيته السياسية وفى ظل وحدته القومية" (**شخصية مصر** ، ص ٢٠٨) .

والاستعارات أو الصور المجازية التى يستخدمها جمال حمدان تشى بولائه العربى على حساب جذوره «المصرية» . فنحن نحب الجد ونتذكره، أما الأب فنحن ننتمى إليه، ونسير معه خاصةً وإذا كان الأب العربى هو "آخر انقطاع فى الاستمرارية المصرية"، خاصةً أن الجد قد ابتعد كثيراً، فمصر الفرعونية (كما يبيِّن جمال حمدان) "لم تعد إلا مكدسة فى المتحف أو معلقة كالحفريات على سفوح الهضبتين، أما فى الوادى فقد انقرضت كما انقرضت من قبل تماسيح النيل من النهر . ولهذا فنحن ننتهى إلى أن الحضارة الفرعونية قد ماتت فى مجموعها، دون أن ينفى ذلك الاستمرارية المحورية فى حضارتنا المادية" (**شخصية مصر** ، ص ٢٠٧) . ولذا يُحذر جمال حمدان دعاة "الفرعونية (وغيرها من دعاوى الرجعية التاريخية والوطنيات الضيقة كالفينيقية والآشورية) فالمقصود من هذه الدعوات نفى القومية العربية ونسخ العروبة ومضاربة القومية الشاملة بالوطنية المغلقة" (**شخصية مصر** ، ص ٢١٤) . كما

يُحذر من دعاة الاستمرارية فى الكيان المصرى "لا ليبرز أصالة ما، ولكن ليقلل من جانب الانقطاع، وبالتالى ليضخم فى البُعد الفرعونى فى تاريخنا فيبعدنا عن عروبتنا ويطمس معالمها" (**شخصية مصر**، ص٢٠٨ – ٢٠٩) .

ومصر التى فى خاطره وفى فمه، وسيدة الحلول الوسطى، تقع فى وسط ثلاث (أو أربع) دوائر مختلفة "بحيث صارت مجمعاً لعوالم شتى، فهى قلب العالم العربى وواسطة العالم الإسلامى وحجر الزاوية فى العالم الأفريقى" (**شخصية مصر** ، ص ٩) . وهو فى كتابات أخرى يشير إلى أفريقيا وآسيا باعتبارهما الدائرة الثالثة . ثم هناك الدائرة الرابعة الأعظم والمحيط الأكبر : بقية العالم .

ولنبدأ بالدائرة الأولى أى الدائرة العربية . "الإطار العربى [حسب تصور حمدان] ليس مجرد بُعد توجيهى أو إشعاعى ولكنه خامة الجسم وكيان جوهر فى ذاته" (**شخصية مصر** ، ص ١٧٨) . ومع هذا لا يرى حمدان أن الوحدة العربية وحدة عضوية مصمتة : "فليس مما يضير قضية الوحدة العربية أو يخرب حركة القومية العربية أن يكون لكل قطر من أقطارها شخصيته الطبيعية المتبلورة بدرجة أو بأخرى داخل الإطار العام المشترك . وهذا التنوع والتباين فى البيئات إنما يثرى الشخصية العربية العامة ويجعلها متعددة الجوانب والأبعاد" . وهو "لا يعنى التمزيق السياسى أو تأكيد الانفصالية الراهنة بحال ولا يشجع الولاءات الوطنية فى وجه الولاء القومى العربى الكبير أو على حسابه" (**شخصية مصر**، ص ١٤،١٣) .

ولنتوقف هنا قليلاً لأشير إلى حقيقة غائبة عن الكثيرين ؛ جمال حمدان بلا منازع هو واحد من أهم فلاسفة ثورة ٢٣ يوليه فقد بلور رؤيتها للذات وللكون وللآخر، ووضع الأسس الفلسفية لمشروعها الحضارى الثورى، ونظّر للصراع العربى الإسرائيلى باعتباره صراعاً سياسياً مصيريًا حضارياً له أبعاد دينية، فابتعد به عن العنصرية . ولكن يبدو أن بيروقراطية ثورة ٢٣ يوليه لم تكن مدركة لأهمية اللحظة التاريخية ولا لمدى ثراء الإمكانات، لأنها كانت ثورة برجماتية عملية تؤمن بالحقائق والمعلومات والحلول الجاهزة، فضاع ما ضاع، وجلس فيلسوفنا الحزين يُنظّر لها، بينما كانت أمانة الدعوة والفكر «الاشتراكى» تمتلئ بموظفين قادرين على إصدار أى بيان يُطلب منهم لخدمة مصلحة الدولة والنظام (أى نظام كما بيّنت الأيام) وبذلك وُضع الفكر فى خدمة اللحظة ولم توضع اللحظة فى إطار الفكر .

ولا تختلف الوحدة الإسلامية من منظور حمدان كثيراً عن الوحدة العربية، فهو يرفض المفهوم العضوى الكاسح للوحدة الإسلامية التى يجعلها تدخل فى صراع مع الوحدة العربية "بهدف المضاربة بينهما من جهة وتذويب القومية العربية وتمييعها من جهة ثانية" . بدلاً من هذا يطرح مفهوماً «صحيًا وصحيحاً» للوحدة الإسلامية . "توحيد الدين، بمعنى توحيد عقيدة الإسلام لا المسلمين، لتذويب الفروق والفرق الصفرية التى ورثها عن ماضٍ فقد الآن سياقه الزمنى ؛ وتعميق روح الإسلام وتقويمها حيث سطحية أو ابتعادات أو تحريفات ؛ التبادل الثقافى والفكرى العام والمزيد من التنسيق الاقتصادى والترابط والتبادل التجارى؛ التضامن

السياسى الوثيق فى المجتمع الدولى لمجابهة الأخطار الخارجية والتعاون لتحرير الدول الإسلامية المستعمرة .. تلك جميعاً هى المجالات الخصبة والفعالة والواجبة لتفاعل العالم الإسلامى سياسياً ... إنها فى كلمة «وحدة عمل» لا «وحدة كيان» . بل يمكن أن نضيف : وحدة مصير، إلا أنها ليست دستورية، فى كلمة أخرى : وحدة فكرية لا دستورية . أو هى كما قال عبد الناصر فى دوائره الثلاث "دائرة إخوان العقيدة الذين يتجهون أينما كان مكانهم تحت الشمس إلى قبلة واحدة ..." . فإذا كانت الدائرة العربية وحدة مصير، والأفريقية وحدة جوار، فالإسلامية وحدة عقيدة" (العالم الإسلامى المعاصر ، ص ٢٠٦) .

فلسطين : عين القلب وقدس الأقداس

بعد هذه المقدمات التاريخية/ الجغرافية، الزمانية/ المكانية، هذه البانوراما العريضة حان الوقت أن نقترب من موضوعنا وأن نسأل : أين تقع إسرائيل من كل هذا؟ وأين يقع اليهود؟ . يعبّر جمال حمدان عن الموقف الجيوستراتيجى المصرى كله فى إيجاز من خلال سلسلة من المعادلات الإستراتيجية على النحو التالى :

"- من يسيطر على فلسطين .. يهدد خط دفاع سيناء الأول .
- من يسيطر على خط دفاع سيناء الأوسط .. يتحكم فى سيناء .
- من يسيطر على سيناء .. يتحكم فى خط دفاع مصر الأخير
- من يسيطر على خط دفاع مصر الأخير .. يهدد الوادى ."

وهذه بالضبط «نواة نظرية الأمن المصرى» (ثلاثية حمدان ، ص ٢٢٨) . إن موقع مصر "مهدد أبداً وبانتظام بالإجهاض والشلل الجزئى ما بقيت إسرائيل"، خاصةً وأنها "تريد أن ترث دور القناة نهائياً، بل وتهدف إلى سرقة موقع مصر الجغرافى"، ومن ثم "يصبح المبدأ الإستراتيجى الأول فى نظرية الأمن المصرى هو مرة أخرى : دافع عن سيناء – تدافع عن القناة .. تدافع عن مصر جميعاً، ولا ضمان بالتالى إلا بذهاب العدو" (ثلاثية حمدان ، ٢٢٨) .

ثم ننتقل إلى الدائرة الأولى حيث نجد مصر "محكوماً عليها بالعروبة" (بعد أن دخل الجد الفرعونى المتحف)، فهى «لا تستطيع أن تنسحب من عروبتها، أن تنضوها عن نفسها حتى لو أرادت" (ثلاثية حمدان ، ص ٢٤) . بل إنها محكوم عليها بزعامة العالم العربى الذى تقع فلسطين فى منتصفه، ولكن "بدلاً من فلسطين التى توحد شطريه [والتى تمثل] نقطة عبور بينهما، تظهر إسرائيل التى تمثل فاصلاً أرضياً يمزق اتصال المنطقة العربية ويخرب تجانسها ويمنع وحدتها" فهى "إسفنجة غير قابلة للتشبع تمتص كل طاقاتها ونزيفاً مزمناً فى مواردها وأداة جاهزة لضرب حركة التحرير" (إستراتيجية الاستعمار والتحرير ، ١٧٥).

ثم ننتقل إلى الدائرة الثانية، أى الدائرة الاسلامية. سنكتشف "إن فلسطين عين القلب من العالم الإسلامى، لا جغرافيا فحسب، بل ودينياً أولاً وقبل كل شىء . إن يكن العالم العربى هو قلب العالم الإسلامى روحياً وموقعاً، فإن فلسطين – كمصر فى هذا الصدد – هى

أرض الزاوية من العالم الإسلامى طبيعياً . وبالفعل فإنها تقع فى صرة العالم الإسلامى تتوسطه – ما بين الصين شرقاً والأطلسى غرباً وما بين وسط أسيا شمالاً وجنوب أفريقيا جنوبياً . إن مكانة فلسطين فى العالم الإسلامى تتلخص ببساطة وبما فيه الكفاية فى أنها من منطقة النواة وقدس الأقداس فيه أرضاً وديناً" (العالم الإسلامى المعاصر، ص ٢٠٨) .

ثم تلتحم الدائرتان العربية والإسلامية "فالخطر الصهيونى لا يستهدف الأرض المقدّسة فى فلسطين فحسب"، وإنما "يمتد من النيل إلى الفرات شرقاً بغرب، ومن الإسكندرونة حتى المدينة شمالاً بجنوب . وهذا وذاك يعنى نصف المشرق العربى بالتقريب، ويضم كل أرض الإسلام المقدّسة بل وكل دائرة الرسالات، ويرادف قلب العالم العربى، وفى الوقت نفسه صرة العالم الإسلامى" (العالم الإسلامى المعاصر ، ص ٢١٥) . ولذا "إن كان ثمة للعالم الإسلامى من وحدة سياسية، فهى وحدة العمل السياسى ، وهو العمل من أجل إنقاذ واستنقاذ فلسطين للعروبة والإسلام . وإذا كان من واجب العالم العربى أن يدعو إلى «قومية المعركة»، فإن من واجب العالم الإسلامى كما يرى كثيرون أن يتنادى إلى «إسلامية المعركة» (العالم الإسلامى المعاصر ، ص ٢١٦ – ٢١٧) .

وتتسع الدوائر لتصل إلى الدائرة الأفريقية الآسيوية وهناك أيضاً سنجد إسرائيل "أخطر مناطق العدوانية الإمبريالية فى العالم الثالث ... أخطر مناطق التسليح الغربى ... ترسانة أمريكية مسلحة حتى

الأسنان" . ويضع جمال حمدان ما يسميه "معادلة عالمية تتألف من عدة متتاليات إقليمية تختزل أساسيات الصراع المستقبل :

- مصير الإمبريالية العالمية يتوقف على مصير العالم الثالث .
- مصير العالم الثالث يتوقف على مصير العالم العربى .
- مصير العالم العربى يتوقف على مصير فلسطين/ إسرائيل."

رأس جسر ثابت

إسرائيل إذن ذات أهمية خاصة بالنسبة لجمال حمدان وهى ليست مهمة فى ذاتها، إذ تنبع أهميتها من أهمية فلسطين بالنسبة لمصر والعالم العربى والعالم الإسلامى والعالم الآسيوى/ الأفريقى والتشكيل الاستعمارى الغربى . وحينما يتناول جمال حمدان ظاهرة إسرائيل فإنه يراها باعتبارها ظاهرة غربية بالدرجة الأولى، ثم ظاهرة يهودية بالدرجة الثانية . يصف جمال حمدان إسرائيل بأنها ظاهرة استعمارية صرفة (**إستراتيجية الاستعمار والتحرير** ، ص ١١٩) . أما الصهيونية فهى بكل بساطة السرقة (**إستراتيجية الاستعمار والتحرير** ، ص ٢٠٩) هى قطعة من الاستعمار الغربى (**إستراتيجية الاستعمار والتحرير** ، ص ١٩١) ولكنها قطعة تتمتع بأهمية خاصة "فهى بالنسبة إليه قاعدة متكاملة آمنة عسكريًا، ورأس جسر ثابت إستراتيجيًا، ووكيل عام اقتصاديًا وعميل خاص احتكاريًا" (**إستراتيجية الاستعمار**

والتحرير ، ص ١٧٥) . ولذا فإن الصهيونية "اليوم هى بلا مبالغة أو مزايدة أكبر خطر وتحدٍ يواجهه العالم الإسلامى المعاصر، تماماً كما يواجهه العالم العربى : أكبر من صليبيات العصور الوسطى، وأكبر من كل موجة الاستعمار الأوربى الحديث التى غطته فى القرن التاسع عشر والذى لم يتعد على اتساعه حدود الأغراض السياسية أو الإستراتيجية أو الاستغلالية . إن الاستعمار التوسعى الأخطبوطى الصهيونى إن يكن سرطان العالم العربى، فهو جذام العالم الإسلامى فى الوقت نفسه" (**العالم الإسلامى المعاصر** ، ص ٢١٥) .

هذه هى بعض الجوانب العامة لهذه الظاهرة الاستعمارية . ولكن جمال حمدان لا يقنع مطلقاً بالعام ولذا فهو يتقدم خطوة للأمام ليدرس خصوصية إسرائيل :

١ - **الاستعمار الصهيونى «استعمار عميل»** ، «فلقد كان من المستحيل أن يتحقق الحلم إلا بالمساعدة الكاملة من قوى السيادة العالمية، فالاستعمار هو الذى خلقها بالسياسة والحرب، وهو الذى يمدها بكل وسائل الحياة من أسلحة وأموال، وهو الذى يضمن بقاءها ويحميها علناً" (**إستراتيجية الاستعمار والتحرير**، ص ١٧٦) . «ومن هنا التقت الإمبريالية العالمية مع الصهيونية لقاءً تاريخيًا على طريق واحد هو طريق المصلحة الاستعمارية المتبادلة : فيكون الوطن اليهودى قاعدة تابعة وحليفاً مضموناً أبداً يخدم مصالح الاستعمار، وذلك ثمناً لخلقه إياه وضمانه لبقائه»

(**إستراتيجية الاستعمار والتحرير** ، ص ١٦٨).

٢ - **إسرائيل استعمار سكنى فى الدرجة الأولى** ، فلئن كانت بداياتها قد واكبت موجة الاستعمار الدارى فى القرن التاسع عشر، إلا أنها استهدفت وحققت كل مقومات استعمار المعتدلات الذى ساد فى القرنين السابع عشر والثامن عشر وسعى إلى التوطن الدائم فى بيئات معتدلة شبه أوربية المناخ . ولعل استعمار الجزائر كان أقرب سابقة لها تاريخياً، ولكنها تظل تمثل آخر موجة من الاستعمار السكنى الاستيطانى فى العالم كله (**إستراتيجية الاستعمار والتحرير** ، ص ١٧٢) .

هذه هى الصورة العامة ولكن جمال حمدان يرى أن ثمة خصوصية لهذا الاستعمار السكنى :

أ) "إذا صح أن نميِّز فى الاستعمار السكنى للمعتدلات بين النمط اللاتينى الذى يضيف المستعمرين إلى الأهالى الأصليين بلا إبادة عامة كما فى أمريكا اللاتينية أو الجزائر، وبين النمط السكسونى الذى يقوم على إحلال المستعمرين محل الأهالى الوطنيين بالإبادة أو الطرد كما فى أستراليا وجنوب أفريقيا والولايات المتحدة، فإن إسرائيل تقع بالتأكيد فى النمط السكسونى" (**إستراتيجية الاستعمار والتحرير** ، ص ١٧٢) .

ب) "تتميَّز إسرائيل بما يجعلها حالة فريدة شاذة لا مثيل لها بين

كل نماذج الاستعمار السكنى، فهى تجمع بين أسوأ ما فى هذه النماذج، ثم تضيف إليه الأسوأ منه . هى كأستراليا والولايات المتحدة انتظمت قدراً محققاً من إبادة الجنس، وهى كجنوب أفريقيا تعرف قدراً محققاً من العزل الجنسى، ولكنها تختلف عن الجميع من حيث أنها طردت السكان الأصليين خارجها تماماً ليتحولوا إلى لاجئين مقتلعين معلقين على حدودها" (**إستراتيجية الاستعمار والتحرير** ، ص ١٧٢ - ١٧٣) .

جـ) كما أن إسرائيل ليست عملية سرقة عادية "فقد اغتصبت الأرض وما عليها من ممتلكات، فالاستعمار الاستيطانى [الإسرائيلى] عملية رهيبة من نزع الملكية على مقياس شعب ووطن بأسره" (**إستراتيجية الاستعمار والتحرير** ، ص ١٧٤) . و"إسرائيل بهذا كله أعلى - أم نقول أدنى؟ مراحل الاستعمار السكنى، وهى الاستيطان بالاستئصال والإحلال والإجتثاث والإبادة" (**إستراتيجية الاستعمار والتحرير** ، ص ١٧٣) .

٤ - **إسرائيل استعمار توسعى أساساً** ، «وأطماعها الإقليمية معلنة بلا مواربة، وخريطة إسرائيل الكبرى محددة من قبل ومتداولة، ومن «النيل إلى الفرات أرضك يا إسرائيل Erets Israel» هو شعار الإمبراطورية الصهيونية الموعودة . وهدف

إسرائيل الكبرى أن تستوعب كل يهود العالم فى نهاية المطاف، ومثله لا يمكن أن يتم إلا بتفريغ المنطقة من أصحابها إما بالطرد وإما بالإبادة . وبطبيعة الحال، فلا سبيل إلى هذا إلا بالحروب العدوانية الشاملة . ونحن بهذا إزاء أخطبوط سرطانى فى آنٍ واحد، إزاء عدوان آنى واقع وعدوان سيقع فى أى آن" (إستراتيجية الاستعمار والتحرير ، ص ١٧٤) .

٥ - أدى كل هذا إلى عسكرة المجتمع الإسرائيلى تماماً ، "فقد تعيَّن فى حالة إسرائيل ، أن تصبح حدودها هى جيوشها، وجيوشها هى حدودها" (إستراتيجية الاستعمار والتحرير ، ص ١٧٤) . «كما أن وجودها غير الشرعى رهن من البداية إلى النهاية بالقوة العسكرية وبكونها ترسانة وقاعدة وثكنة مسلحة، فما قامت ولن تبقى – وهذا تدركه جيداً – إلا بالدم والحديد والنار . ولهذا فهى دولة عسكرية فى صميم تنظيمها وحياتها، و«أمن إسرائيل» هو مشكلتها المحورية، أما حلها فقد تحدد فى أن أصبح جيشها هو سكانها وسكانها هم جيشها، وهو ما يعبَّر عنه بـ «عسكرة» إسرائيل وأنها استعمار اقتصادى، فهذا أساسى فى كيانها منذ أن اغتصبت الأرض وما عليها من ممتلكات" (إستراتيجية الاستعمار والتحرير ، ص ١٧٣).

متحف الأجناس

إسرائيل – كما أسلفنا – استعمار سكانى مبنى على نقل السكان

(اليهود) من الخارج إلى فلسطين، ولذا يصبح هؤلاء اليهود إشكالية أساسية، ومن هنا اليهود أنثروبولوجياً . وجمال حمدان – كما أسلفنا – يرفض وحدة العلوم، «لذا فعلوم الإنسان مختلفة عن علوم الحيوان والحشرات والأشياء، ولذا فهو لا يشيئ ما هو إنسانى، أى لا يراه باعتباره شيئاً، أى لا يخضعه لمنطق الأشياء وقوانينها . كما أنه لم يشيئ مصر أو العالم العربى والإسلامى، ولم يشيئ الجغرافيا فى علم طبيعى، ولم يشيئ إسرائيل (ليجعلها إما قاعدة عامة للاستعمار الغربى، أو تعبير فريد عن مؤامرة يهودية شيطانية أزلية)، فهو أيضاً لا يشيئ اليهود .

لا يدرس جمال حمدان اليهود باعتبارهم رسل الحضارة النورانيين (الشعب المختار فى الرؤية الصهيونية) ولا هم شياطين ملاعين (قوة الشر الأزلية فى الرؤية المعادية لليهود) . فكلتا الرؤيتين تشيئان اليهود وتضعهما فى مجال خاص بهم، مقصور عليهم سُمّى «الدراسات اليهودية» وهى تسمية متحيزة لأقصى حد، تنطلق من رؤية اليهود باعتبارهم وحدة (كتلة عضوية من الملائكة أو الشياطين) . يرفض جمال حمدان هذا ويضع اليهود، كما يضع أى ظاهرة أخرى، فى النقطة التى يتقاطع فيها الخاص مع العام والكل مع الجزء . فاليهود هم بالدرجة الأولى جزء من الظاهرة الاستعمارية الاستيطانية الإحلالية العامة، ومع هذا فثمة ملامح خاصة فريدة لهم : العودة اليهودية إلى فلسطين ليست عودة توراتية أو تلمودية أو دينية وإنما هى "عودة ... إلى فلسطين بالاغتصاب، هو غزو وعدوان غرباء لا عودة أبناء قدامى، أى استعمار لا

شبهة فيه بالمعنى العلمى الصارم . تمثل جسماً غريباً دخيلاً مفروضاً على الوجود العربى، أبداً غير قابل للامتصاص ... فهم ليسوا عنصراً جنسيًا فى أى معنى بل جماع ومتحف حى لكل أخلاط الأجناس فى العالم كما يدرك أى أنثربولوجى" (ص١٧) . "إن يهود العالم اليوم مختلطون فى جملتهم اختلاطاً بعُد بهم عن أى أصول إسرائيلية فلسطينية قديمة" (ص ١٨١) .

هذه هى الصورة العامة، ولكن هناك دائماً الخاص، "وإذا كان ثمة تحفظ ما، فهو أن هناك مراحل ودرجات من هذا التخليط" (ص ١٨١). وبعد أن يبيِّن هذه المراحل وتلك الدرجات يخلص إلى "أن اليهود اليوم إنما هم أقارب الأوربيين والأمريكيين، بل هم فى الأعم الأغلب بعض وجزء منهم وشريحة، لحماً ودماً، وإن اختلف الدين . ومن هنا فإن اليهود فى أوربا وأمريكا ليسوا كما يدعون غرباء أو أجانب دخلاء يعيشون فى المنفى وتحت رحمة أصحاب البيت، وإنما هم من صميم أصحاب البيت نسلاً وسلالة، لا يفرقهم عنهم سوى الدين (ص ١٨٣).

هذه هى النتيجة النهائية، ولكنه لا يصل إليها من خلال المرافعات القانونية والمنطقية الرنانة أو من خلال لى عنق الحقائق، أو من خلال أنصاف الحقائق (التى يسمونها «الأكاذيب الحقيقية»)، وإنما من خلال دراسة متعمقة لكل التفاصيل الممكنة . أنظر – على سبيل المثال – دراسته لشكل الرأس باعتباره أهم المؤشرات على النقاء، أو الخلط (ص ١٤٢ ـ ١٤٦) . يعرض حمدان للقضية من خلال بناء منطقى واضح

يختبره دائماً من خلال القرائن والشواهد المتعينة المختلفة . وهو فى دراسته لا يكف عن الإشارة للسياقات التاريخية المتعددة وتنوعها . ففى أقل من صفحة واحدة (ص ٦٠) يشير إلى تاريخ الصراع بين الدولتين العبرانيتين (٥٨ ـ ٦٠) وإلى يهود الجزيرة العربية (الذين يتناولهم فى عدة صفحات أخرى فيدرس تاريخهم [ص ٦٣] وتوزيعهم [ص ١٠٤] وأعدادهم [ص ١٠٥] وخروجهم من العالم العربى) .

والهدف من هذه السياقات التاريخية والأبعاد المركبة المتنوعة هو الخروج بالظاهرة اليهودية من سجن الدراسات اليهودية ليدخل بها فى سياق العلم العام . فاليهود جزء من تواريخ التشكيلات الحضارية التى يوجدون فيها ولا يوجد أى داع لعزلهم عما حولهم من ظواهر . فكما أن إسرائيل استعمار استيطانى إحلالى شأنه شأن أى استعمار استيطانى إحلالى يمكن دراسته داخل إطار حركيات تاريخ الاستعمار الغربى . فاليهود هم أيضاً بشر، يمكن دراستهم داخل إطار حركيات تواريخ المجتمعات المختلفة شأنهم شأن كل البشر. وهو بذلك يسترجع لهم إنسانيتهم التى استبعدها كل من الصهاينة والمعادين لليهود الذين صوروا اليهود، على سبيل المثال، على أنهم فى حالة شتات دائمة، يهيمون على وجههم من بلد لآخر يرفضون الاندماج فى مجتمعاتهم. لا يقبل جمال حمدان مثل هذه الأساطير الشائعة، ويبيِّن أن اليهود لم يقاوموا عمليات صبغهم بالصبغة الهيلينية كما تزعم التواريخ الصهيونية،

لا يمكن إنكار أن بعضهم قد قاوم بالفعل بل ونشأت الدولة المكابية للتصدى للنزعة الهيلينية، إلا أن الأغلبية الساحقة قبلت بهذه الحضارة الهيلينية "وانتشروا انتشاراً واسعاً بعيد المدى فى كل العالم الهيليني البيزنطي" . هذا الانتشار لم يكن تعبيراً عن شتات أبدى وتجوال لا نهاية له، وإنما هو استجابة إنسانية عادية لأوضاع حضارية اجتماعية . ولذا نجد أن "فى مصر قُدر أن ثلث سكان الإسكندرية البطلمية كان من اليهود" (ص ٦٦)، هذا قبل سقوط الهيكل، أى أن سقوط الهيكل لم يكن هو سبب تشتت / انتشار اليهود وإنما هو نتيجة اندماج اليهود فى الحضارة الإغريقية، شأنهم شأن الشعوب الأخرى .

من المعلومات المتناثرة إلي الأنماط المتكررة .

لا يرص جمال حمدان المعلومات والحقائق والوقائع رصاً، ولا يراكمها وكأنها قطع من الأحجار الصماء، فهو دائم البحث عن أنماط، ذات معنى ومغزى، كامنة فى التفاصيل . وهو لا يتناول مادته العلمية الخام بشكل مباشر وكأن عقله صفحة بيضاء ملساء، وإنما يواجهها من خلال إشكالية محددة، فبعد أن يأتى بحشد هائل من المعلومات عن أعداد اليهود فى العالم وتوزيعهم، يطرح السؤال التالى : "ماذا تعنى هذه الأرقام وتلك التوزيعات؟" . وما هى "ملامح الصورة العامة" . الإجابة هى أن "أوربا عملياً هى الوطن المطلق لليهودية العالمية، وما يوجد خارجها ليس بالمقارنة إلا شظايا . وعلى مستوى النظرة الكلية يمكن أن نتصور ثلاث دوائر هى أقطاب التوزيع حتى نهاية القرن الماضى، تقع على عروض متقاربة ولكنها تتضاءل بسرعة وبشدة أقطاراً وأحجاماً من الشرق إلى

الغرب : دائرة شرق أوربا ومركزها بولندا الروسية، ودائرة غرب أوربا ومركزها الراين وفرانكفورت، وأخيراً دائرة الولايات المتحدة ومركزها نيويورك " (ص ٩٤) .

هذا هو الإطار العام، ولكن داخل الإطار العام توجد أنماط أقل عمومية "فالصورة بعد الحرب العالمية الثانية غيرها قبلها . واليهود في الإطار الكوكبي هم ظاهرة قزمية" (ص ٩٦) . وانتشار اليهود في أنحاء العالم ليس انتشاراً كميًا أو تمدداً أفقيًا وإنما يتبع هو الآخر نمطاً محدداً، فهم ليسوا منتشرين على وجه العموم بل يُلاحَظ اتجاههم "نحو سواحل المحيط الأطلسي شرقية وغربية . فإذا ما أضفنا إلى ذلك نمط التوزيع في أمريكا الجنوبية ثم تركز يهود شمال أفريقيا تقليديًا في المغرب، لجاز لنا أن نقرر أن الأغلبية العظمى من يهود العالم تحف بشواطئ ذلك المحيط، بعد أن كانت حتى القرن الماضي تتركز أساساً في القلب القاري للعالم القديم" (ص ١٠٩) .

وينتقل حمدان من أنماط التوزيع في العالم على وجه العموم إلى أنماط التوزيع داخل كل قطر، فيبيِّن أن "اليهود بالدرجة الأولى سكان مدن، وسكان مدن كبرى بالدقة، ثم هم إلى ذلك سكان عواصم بالتفضيل والامتياز . وأنت حين تتكلم عن يهود دولة ما فأنت تتكلم في الحقيقة عن يهود العاصمة ومدينة أو اثنتين إلى جوارها . وهذه حقيقة طاغية وأبدية طوال تاريخ اليهود قديماً كان أو حديثاً ولا تتبلور في وقتنا هذا . والأمثلة تغني عن الحصر، ولعل أوضحها في الذهن المثال الأمريكي" (ص ١٠٩) . وأرجو أن يتأمل القارئ بناء هذه المقطوعة «هم سكان مدن»

نعم ولكنها ليست أي مدن وإنما «مدن كبرى»، وهي ليست مدن كبرى وحسب وإنما «عواصم» . ثم يضع يدنا على النمط الذي يربط التعميم المجرد بالتفاصيل المتعينة و«يهود دولة ما» هم عادةً «يهود العاصمة ومدينة أو اثنتين إلى جوارها» . وهكذا يكتسب النمط ألوانه وتفاصيله، ثم تنتهي المقطوعة بالإشارة إلى تاريخ اليهود قديماً وحديثاً، وأخيراً إلى المثال الأمريكي المتعيَّن . يبيِّن حمدان أن اليهود يقيمون أساساً في نيويورك وشيكاغو وبضعة مدن أخرى . ويتناول نيويورك ذاتها بالدراسة التي يسميها (بروح الدعابة التي لا تفارقه، رغم نبرته الجادة) "تل أبيب الكبرى، بل إنها إسرائيل الكبرى" . ثم يعود إلى النمط مرة أخرى فيقول: "إن عدد اليهود في المدن يتناسب تناسباً طردياً مع أحجامها، فهم أقوى ما يكون في نيويورك تليها على الأرجح شيكاغو، بينما لا وزن لهم مثلاً في بوسطن" (ص ١١٢) . ثم يتبنى نبرة القاص ويسأل : "هل تريد مزيداً من الأمثلة؟" وهو بالطبع لا ينتظر الإجابة فيعطي قارئه عشرات الأمثلة : تورنتو ومونتريال وباريس ولندن وتونس واستنبول وجوهانسبرج وسيدني، أي أنه يختبر بنفسه النمط العام الذي طرحه بالإشارة إلى كثير من القرائن والتفاصيل ليبيِّن مقدرته التفسيرية وليكتسب له الشرعية التي يستحقها .

ثم يصل حمدان إلى فلسطين، دائماً فلسطين، مركز اهتمامه وسر انشغاله باليهود : "حتى في فلسطين المحتلة تحول المغتصبون الدخلاء المقتلعون إلى سكان مدن : فمنذ بضع سنين كان ٩ . ٧٥٪ من

سكان إسرائيل يتكدسون في المدن . والمؤكد أن هذه النسبة قد زادت منذ ذلك الوقت، ومن المؤكد كذلك أن العالم لا يعرف دولة قزمية بهذه الدرجة الصارخة المنحرفة من المدنية urbanism . ولكنها ببساطة «حثالة مدن» العالم انصبت واستُقطبت في دولة" (ص ١١٣) . قد تتفق معه وقد تختلف، وقد تقبل ما يتوصل له من نتائج وقد ترفضه . قد ترى طريقة ربطه بين التفاصيل وتجريده للأنماط متعسفة قليلاً أو كثيراً، وقد تذهب إلى أن نبرته حادة قليلاً أو ربما أكثر من اللازم، قد تقول أن استخدام عبارة «حثالة مدن» انحراف عن المنهج العلمي المحايد أو البارد، قل ما شئت ولكن لا يمكن بعد ذلك أن تقر عيناك بالموضوعية المتلقية وعمليات رص الإحصائيات وتحليل المضمون ولا تملك إلا أن تفكر فيما يقول، فقد شحذ ذهنك وحفز عقلك وعلمك كيف تنفض عن نفسك غبار التلقي، وها أنت ذا تجد نفسك منشغلاً مثله بالتفسير والبحث عن أنماط لها معنى ودلالة داخل التفاصيل التي تبدو وكأن لا معنى لها ولادلالة، أي أنك الآن منشغل بالحقيقة لا بالحقائق والوقائع، وها أنت ذا تدرك أن الحقيقة لا توجد في الحقائق وإنما في الأنماط التي يستخلصها عقل الباحث، وأن عليه (إن كان حقاً محباً الحقيقة وليس عبداً للحقائق) أن يكد ويتعب ليصل إلى من يحب .

اليهودى كتاجر

أشرنا إلى رؤية حمدان لتوزيع اليهود في المكان، ولكن تظل الصورة في حاجة إلى مزيد من الظلال، حتى لا نقع في عالم الأشباح

العامة، حتى ننتقل من مجرد النيجاتيف أو أشعة إكس التي لا تنطق إلا بالقوانين العامة المادية (الخاضعة للقياس) إلى اللوحة المبدعة التي رسمتها يد إنسان ولذا فهي قادرة أن تنطق بالعام والخاص، وأن تحيط بالكم والكيف والزمان والمكان، وبما يقاس بدقة وبشكل مباشر وبما لا يمكن الوصول إليه إلا من خلال إستراتيجيات إدراكية مختلفة بسبب تركيبيته . لإنجاز هذا يشير جمال حمدان إلى توزيع اليهود المهني والوظيفي ويُلاحظ ابتعادهم عن "الزراعة أولاً وعن الصناعة إلى حد بعيد" (ص ١٠٢). كما يُلاحِظ أنهم يتركزون في "الأعمال الحرة والمعاملات التجارية والنشاطات المالية والمصرفية ... إلخ" (ص ١٠٤) . ثم بعد أن يحدد الأطروحة بهذا الشكل العام ينطلق في الزمان والمكان ويبيّن أنه "ليس بالعالم كله مجتمع يهودي زراعي واحد يستحق الذكر" . "وعلى العكس من ذلك كله التجارة والمهن الحرة، فقديماً كانت كلمة اليهودي مرادفة لكلمة «التاجر»، وحديثاً يحتشد اليهود في الوظائف الحرة كالطب والمحاماة والتجارة والمال والصحافة حتى لنجد، على سبيل المثال، أن نصف مجموع الأطباء والمحامين في ولاية نيويورك ... من اليهود" (ص ١١٥) .

بل إن مستوى التعميم يتجاوز اليهود ليصبح نمطاً عالميًا، "واليهودي بهذا كله قد أصبح مركباً اقتصاديًا - اجتماعيًا شديد الوضوح حتى ليُضرب به المثل وحتى اتُخذ علماً ونموذجاً على حالات مشابهة : كذلك مثلاً يطلق على الجاليات الصينية التاجرة خارج الصين

«يهود جنوب شرق آسيا»، وكذلك يوصف الهنود في مدن ساحل أفريقيا الشرقية «يهود شرق أفريقيا»!" (ص ١١٦)، أي أنه يخرج بالنمط من عالم اليهود إلى عالم الإنسان ككل، وتصبح الظاهرة اليهودية جزء من العلم العام، علم اجتماع الأقليات التجارية الهامشية .

ولا ينسى جمال حمدان البُعد الديني . فرغم تأكيده أن الصراع العربي الإسرائيلي ليس صراعاً دينيًا (على الأقل من طرفنا) إلا أنه لا يسقط المكون الديني. فكما أن الدائرة إسلامية هي إحدي الدوائر الأساسية التي تقع مصر وفلسطين في وسطها فإن العقيدة اليهودية تشكل إحدي الدوائر الأساسية للصهيونية واسرائيل. ولذا فهو يتناولها بالدراسة ويصفها "بأنها وحدها من بين الأديان السماوية، هي التي تشترك مع كثير من الديانات غير السماوية في أنها ديانة «مقفلة مغلقة» أي تحجم عن التبشير وتجتر نفسها أبداً" . واليهودية "قد تكون عالمية بحكم توزيعها، ولكنها في واقع الأمر أبعد شيء عن العالمية بحجمها القزمي الضئيل"، وبحكم أن اليهودية "ديانة جغرافية (مقصورة على وطن) وعنصرية (مرتبطة بقوم أو عنصر بعينه)" (ص ٩٧) . وعلى الرغم من أن جمال حمدان لا يشير إلى ماكس فيبر هنا إلا أنه من الواضح أنه قد قرأ بعضاً من أعماله (ويشير له بالفعل في بعض دراساته الأخرى) مما يبيّن مدى اتساع أفقه الثقافي والتفسيري .

ونفس الاهتمام بالدين كمقولة تحليلية يظهر في رؤيته للاندماج، فعلى عكس ما يقال عن النزعة الجيتوية عند اليهود فإن جمال حمدان يبيّن أن "اليهود أكثر تعرضاً للعلمانية المطردة إذا قورنوا بغيرهم من

الأقليات الأمريكية" (ص ١٧٠) . ومع "تسارع واطراد العلمانية والانصهار لابد وأن يتناقص اليهود إلى أن يختفوا" . وعلى عكس ما يتصور البعض هنا في العالم العربي "لا يؤخر هذا الاختفاء إلا ضد السامية أكثر من أي عامل آخر" (ص ١٧١) . ومن هنا الصهيونية، ومن هنا "الدولة الجيتو" (ص ١٧٢) . وهذا التحليل يبيِّن التزام جمال حمدان بالتعددية السببية ورفضه أن يعطي أولوية سببية لعنصر واحد . فظهور الدولة الصهيونية هو ولاشك جزء من الهجمة الاستعمارية ضد المنطقة، ولكن هناك أيضاً عناصر خاصة بالجماعات اليهودية مقصورة عليهم ساعدت على تأسيس هذه الدولة . ولذا لابد وأن تُرصد هذه الدولة لا في إطار هذا العنصر أو ذاك وحسب، وإنما من خلال كل العناصر .

حجر أم رشاش متطاير؟

يتحرك جمال حمدان من العام إلى الخاص ومن الخاص إلى العام، ولذا فهو حريص على أن يبتعد أسلوبه عن الصيغ اللغوية الجاهزة ليبحث عن كلمات وعبارات محددة تعبِّر عن المنحنى الخاص لرؤيته . ولذا نجده يكد ويتعب ليعثر على الكلمات الدقيقة الدالة ("جغرافيا صماء") ويتلاعب بها لإبراز المعنى المطلوب ("الرص والرصانة") أو الجمل المتناقضة (عدوان آني واقع وعدوان سيقع في أي آن) . وهناك النبرة الخاصة في خطابه، فهو قادر على أن يتوقف عن السرد ليتوجه للقارئ مباشرةً . ويمكنه أن يتحدث بلهجة العلماء ثم يرصع هذا الكلام بعبارة جميلة في ذاتها، كما أنه مصري صميم في ولائه شبه الكامل للنكتة،

ولكنها نكتة تُوظَّف دائماً في خدمة الرؤية !

انظر على سبيل المثال هذه الفقرة من شخصية مصر "أما الانفتاح الذي يرادف الانتفاخ، فقد خلق طبقة جديدة ثقيلة من الرأسمالية العاتية المستغلة والطفيلية غير المنتجة في أعلى السلم الاجتماعي" (**ثلاثية حمدان** ، ص ٢٢) . هذا التلاعب بالألفاظ، الذي هو في جوهره شكل من أشكال الدعابة، يعبِّر بدقة بالغة عن جانب من الواقع المصري . فالأسلوب الخاص هنا ليس زخرفة وإنما تعبير عن ثنائية حمدان التكاملية الخصبة .

وهناك أخيراً استخدامه للمجاز . واللغة المجازية ليست زخرفة كما يتصور البعض، فالمجاز هو وسيلة إدراكية وطريقة للتعبير عن إدراك مركب تعجز اللغة النثرية عن التعبير عنه . ولأن إدراك جمال حمدان للواقع مركب وفريد فإنه كثيراً ما يلجأ للمجاز . وهذا في حد ذاته تعبير أيضاً عن رفضه لفكرة وحدة العلوم . فاللغة الرياضية العامة المجردة التي تصلح للتعبير عن الظواهر الطبيعية لا تصلح للتعبير عن كل جوانب الظاهرة الإنسانية . ففي وصفه لتوزع اليهود في العالم يبيِّن أنه "ليس صحيحاً أن «تحت كل حجر في العالم يهودياً»" ، ويأخذ استعارة الحجر ويقترح استعارة أخرى مشتقة منها ولكنها تقف بالنسبة لها على طرف النقيض : "الأصح أن نقول أن توزيع اليهود العالمي توزيع رشاش متطاير في معظمه يتحول أحياناً إلى تراب رمزي بحت" . وهكذا يتحول الحجر الصلب إلى «رشاش متطاير» ثم إلى «تراب» (ص ١٠٥) . وفي

مكان آخر يتحدث مرة أخرى عن توزيع اليهود فيقول "الصورة المجازية ليست نهر مجره مرصعة عالميًا بمستعمرات اليهود، ولكنها يمكن أن تكون منثوراً من النوى والنويات السديمية هناك وهناك" لقد استخدم هنا نفس الآلية تقريباً، فلقد أخذ صورة "نهر المجره" ليحوله إلى "منثور من النوى والنويات السديمية" (ص ١٠٥)، بدلاً من النور الذي له مركز وقوام يظهر عالم بلا مركز .

أثر جمال حمدان

هناك قضية خاصة ولكنها عامة (غير ذاتية تماماً وغير موضوعية تماماً) في ذات الوقت (ثنائية حمدانية) وهي علاقتي ومدى تأثري به . قرأت هذا الكتاب حينما كنت أكتب **موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية : رؤية نقدية** والتي صدرت عام ١٩٧٥ . كنت أحس نحوه بالإعجاب الشديد سواء في أسلوب كتابته أم أسلوب حياته: هذا الزهد العلمي الشديد، هذا الإعراض عن الدنيا الذي مكنه من إنجاز بعض جوانب مهمة من مشروعه المعرفي الضخم (ولعل هذا هو الذي شجعني على الاستقالة من الجامعة لأنجز مشروعي المعرفي) . ومن المفارقات التي تستحق التأمل أن هذا الأستاذ الجامعي الذي ترك الجامعة، والمثقف الذي اعتزل الحياة الثقافية قد ألقى بظلاله على كل من الجامعة وحياتنا الثقافية.

ولكن رغم الإعجاب الشديد هذا يبدو أنني حين قرأت كتابه لأول مرة كنت أبحث ساعتها عن المعلومات شأني في هذا شأن أي باحث،

ولكن يبدو أيضاً أنني استوعبت في ذات الوقت منظومة فكرية كاملة ثم استبطنتها تماماً دون أن أدري . غير أني لم أدرك هذا إلا مؤخراً بعد أن انتهيت من كتابة **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية : نموذج تفسيرى وتصنيفى جديد** (والتي استغرقت معظم الفترة السابقة من حياتي) وجلست لأتأمل في مصادر فكري . وقد تزامن هذا مع كتابة هذه المقدمة، فهالني حجم تأثري به في طريقة تفكيره . لقد جاء في كتابه الكثير من المعلومات والوقائع فأخذت منها ما أخذت، واستبعدت ما استبعدت، ثم تبدلت المعلومات وتحورت، كما تتبدل المعلومات وتتحور، ولكن بقي ما هو أهم: بقي فكره ورؤيته ومنهجه . فمن الواضح أنني تعلمت من جمال حمدان رفض الواحدية المادية العلمية والتعصب للمناهج الرياضية، وإعادة الاعتبار للخيال والمجاز والحدس في عملية التفكير العلمي . ومن أهم ما تعلمته منه هو الخروج بالظواهر اليهودية والصهيونية من دائرة التوراة والتلمود والدراسات اليهودية وإدخالها في نطاق العلم الإنساني العام ووضعها في عدة سياقات تاريخية لتصبح ظواهر مختلفة ذات أبعاد مختلفة وليست ظاهرة واحدة مغلقة تتسم بالوحدة . ولكن أهم ما تعلمته منه وهو ما تعلمته من أساتذتي (مثل د . إيميل جورج - د . نور شريف - د . ديفيد وايمر) طريقة التفكير والنظر وكيفية التأمل في المعلومات وتفسيرها . لقد تعلمت من جمال حمدان كيف تُكتشف الأنماط داخل ركام التفاصيل المتغيرة وكيف نجرد الحقيقة من الحقائق . ولا أدري هل تعلمت منه أيضا شيئا من الصلابة والقدرة علي المقاومة؟ .

أثر جمال حمدان لا يمكن أن تجده في سطر أو سطرين أو صفحة أو صفحتين من كتاباته، وإنما هو هناك بين السطور، وهذا هو أعمق الأثر. ولكن مع سيطرة النموذج التراكمي المعلوماتي، أُهملت أهمية هذا النوع من التأثر لمجال البحث العلمي بالنسبة للكثيرين هو الحقائق وليس الحقيقة، هو المعلومات وليس الأنماط الكامنة وراءها، ولذا فحينما يُدرس أثر كاتب على آخر فإن الدارسين عادةً ما يبحثون دائماً عن بضعة جمل وعبارات واقتباسات مباشرة نقلها الكاتب المتأثر بالكاتب المؤثر (وهكذا عُدنا مرة أخرى لشركات النقل!) . وقائمة المراجع فيما يكتب من دراسات تدور في إطار هذا النموذج المعلوماتي، مما يعني أن إسهام عشرات المفكرين والمعلمين في صياغة أفكار الدارسين لا يعترف به لأنه مثل هذا الاسهام لا يوجد في سطر بعينه أو في صفحة محددة، وما يوجد بين السطور لا يُقاس ولا يُمسك بالحواس الخمس ولذا فهو غير موجود من منظور كمي معلوماتي.

كما أنني يمكنني أن أثير قضية أخرى وهي لِم لمْ يؤثر جمال حمدان في هؤلاء الذين يكتبون دراسات في نفس الموضوع بطريقة تتناسب مع حجمه الفكري. يمكنني القول أن النموذج المعلوماتي التراكمي قد سيطر تماماً وحوّل كل شيء (الآراء والرؤى والأحلام والآلام) إلى معلومات. ولذا تحولت كتابات هذا المفكر الفذ إلى مادة أرشيفية، يتناولها بنهم الكُتّاب المعلوماتيين. وأعتقد أن معظم ما يُكتب هذه الأيام يُكتب صدوراً عن هذا النموذج، ولكن الأسوأ من هذا أن ما يُقرأ الآن يُقرأ بنفس الطريقة، وهكذا تضيع الحقيقة ولا يبقى سوى الحقائق!

والتكريم الحقيقي لجمال حمدان لابد وأن يأخذ شكل محاولة التوصل لا إلى ثمرة فكره وإنما إلى طريقة تفكيره، لا إلى ما قاله وذكره وأورده من معلومات وحقائق ووقائع وإنما كيف توصل إلى ما توصل إليه من نتائج وكيف نجح (أو أخفق) في توصيله. ولابد وأن نكتشف طبيعة مشروعه البحثي ونبيّن ما أنجزه منه وما لم ينجزه - فهناك أجندة بحثية بين السطور علينا أن نصل إليها ونبيّنها للأجيال. إن جمال حمدان وضع أساس خطاب تحليلي جديد، لم يلتزم به هو نفسه أحياناً، وهذا هو شأن الرواد دائماً. علينا أن ندرس هذا الخطاب ونصل إلى برنامج بحثي يحوي الإشكاليات الأساسية التي طرحها جمال حمدان، ثم نكمل المسيرة وبذا لا تضيع حياته هدراً وتكتسب عزلته معنى، ويتحول إنجازه الفكري الشامخ من مجرد مجموعة أفكار مرصوصة وكتابات مصفوفة تُسحب من الخزائن في المناسبات العامة ليُكرّم اسم صاحبها ثم تُعاد مرة أخرى، لتستمر في الرقاد! يتحول هذا الانجاز الشامخ إلي رصيد حي يُضاف إلى رصيد هذه الأمة الفكري فيزيدها علما وحياة. والله أعلم.

دمنهور والقاهرة ٥ فبراير ١٩٩٦

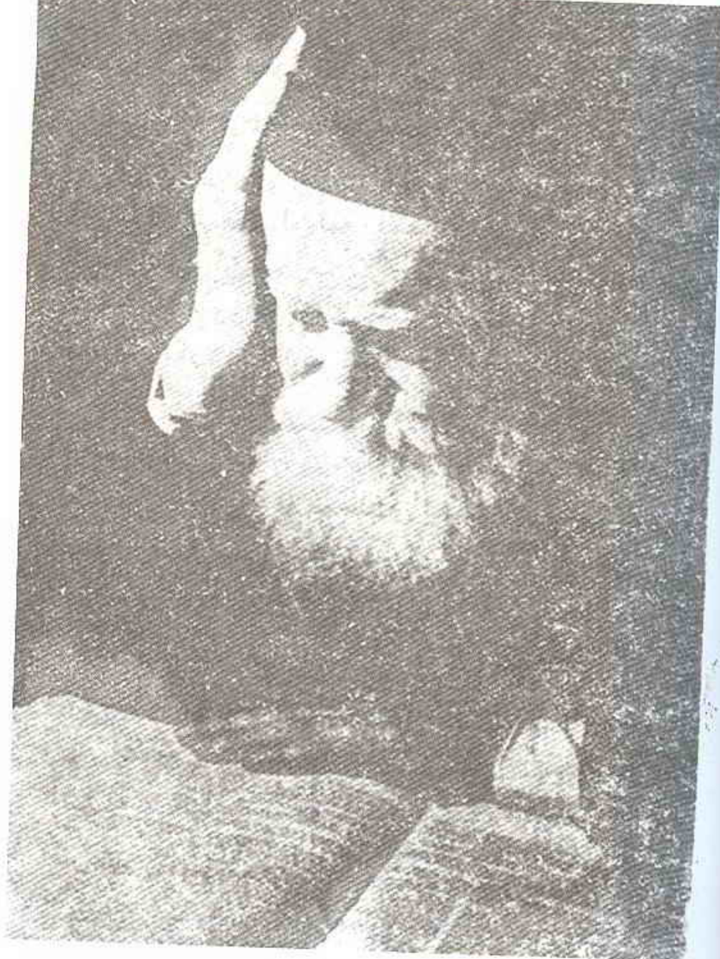
١٦ رمضان ١٤١٦

اليهود
انثروبولوجيا

"إن العرب واليهود أبناء عم من الناحية العنصرية" بهذه الجملة الخطيرة وبهذا الجزم القاطع يخاطب فيصل بن الحسين الهاشمى الذى سيصبح ملكا على العراق فيما بعد ، يخاطب القاضى الامريكى اليهودى فيلكس فرانكفورتر فى ١٩١٩ . وهو بعد أن يضيف الى قولته التشابه فيما تحمله العرب واليهود من اضطهادات ومظالم وفيما تمكنوا من القيام به فى طريق تحقيق أهدافهم القومية ، يرتب على تلك المقدمة نتيجة سياسية تتفق معها فيما يبدو له وهى "اننا سنرحب باليهود ترحيبا قلبيا فى عودتهم الى البلاد ... وهناك مجال فى سوريا يتسع لنا جميعا" . ويعود نفس المتحدث الى نفس الفكرة ليؤكدها فى مؤتمر الصلح بباريس فى نفس العام فيعلن أن "هناك صلات وثيقة من القرابة والدم بين العرب واليهود ، كما أنه ليس ثمة تعارض واضح فى الصفات المميزة للشعبين" ..

وبعد نحو نصف قرن من هذه التصريحات التى تصدر على مستوى القيادة السياسية ولكنها تتكلم ، أو تسمح لنفسها أن تتكلم ، كما لو بلسان الانثروبولوجيين ، تعود نفس النغمة لترتفع على نفس المستوى وبنفس اللسان ، حين أعلن السعودى فيصل أثناء زيارته للولايات المتحدة فى العام الأخير انه لايكن شيئا ضد اليهود (يقصد تمييزا لهم عن الصهيونيين) "لاننا ابناء عمومة فى الدم" وهذا حسين الاردن آخر الهاشميين ياتى من بعده ليعلن أخيرا جدا أن العرب واليهود عاشوا مراحل طويلة فى التاريخ جنبا الى جنب وفى صداقة وتعاون كأقارب وجيران ..

عميقة إذن هذه الفكرة ، فكرة قرابة الدم بين العرب واليهود ، ومنتشرة متفشية هى إذن بين الكثيرين لا فى الخارج فحسب ولكن بين العرب أنفسهم ، بل وعلى مستوى قياداتهم ، بغض النظر عن كونها قيادات رجعية دعية فرضت أو فرضت نفسها عليهم . ولاجدال أن لهذه الفكرة نتائجها وتخريجاتها السياسية التى يمكن أن تترتب



عالم تلمودى

عليها ، كما فعل فيصل بن الحسين فى الواقع حين رحب باليهود فى سوريا فى النص السابق !

فرغم أن من الثابت المقرر فى القانون الدولى أن ترك شعب لوطنه آلافا سحيقة من السنين لايمكن الا أن يحرمه كل حق فى المطالبة بالعودة اليه الآن ، ورغم أن الفقهاء الدوليين يسخرون من مجرد فكرة اعادة تشكيل الخريطة السياسية

للعالم على أساس غزوات وهجرات وتوزيعات الماضى الغابر ، الأمر الذى يمكن أن يقلب صورة الدنيا راسا على عقب بشكل ساخر بل سخيف لايتصور ، نقول رغم هذا كله فان فكرة قرابة العرب واليهود فى الدم قد يمكن أن تلقى بعض ظلال على قضيتنا المصيرية الاولى فى فلسطين ، وقد يمكن أن تفتح بابا للحلول الخاطئة أو الخائنة ، سيئة النية أو ساذجة النية :

وليس هذا مجرد استدلال أكاديمى أو أسقاط منطقى ، وانما هو بالفعل مانجده فى أكثر من دائرة من الدوائر العربية وغير العربية . فليس

بعيدا مشروع الملك عبدالله ، الذى اقترحه بنفسه على بريطانيا حلا لمشكلة فلسطين فى الاربعينات ، من انشاء "مملكة سامية" يكون هو على راسها ويكون لليهود فيها حكمهم الذاتى ! وفى السنوات الأخيرة ترددت فكرة "الاتحاد الفيدرالى السامى" بين بعض اليهود من صهيونيين وغير صهيونيين وضد صهيونيين . ولعلنا ان نكتفى منها هنا بذكر مشروع الفريد ليلينتال فى كتابه الأخير The other side of the coin. الذى يقترح فيه أن يعود الصهيونيون الاسرائيليون الذين من أصل أوروبى الى أوروبا ، ويبقى الاسرائيليون الذين هم من أصل شرقى فى فلسطين ، وذلك مع عودة عرب فلسطين اليها ليعيشوا معهم فى دولة واحدة جديدة ، تدخل مع الوقت فى علاقات اقتصادية مع بقية الدول العربية متطلعة إلى اتحاد اقتصادى مع الأردن وغزة ومتجهة فى النهاية الى "اتحاد سامى" كبير !

ولسنا هنا بصدد مناقشة هذه المشروعات أو نقدها ، فكل حل لايعيد الوضع الى ماكان عليه قبل

١٩٤٨ بل قبل ١٩١٨ مرفوض بلا نقاش ، وكل حل لايزيل اسرائيل من الوجود لامحل له من البحث العلمى ، ولكن سؤالنا المحورى هاهنا هو الاساس الجنسى المزعوم فى تلك المشروعات : أحقا نحن اقارب اليهود وابناء عمومتهم ؟ على أى أساس علمى ذلك ، وأى دليل تاريخى ينهض بذلك ؟ واضح أن المجال هو مجال الانثروبولوجى والانثروبولوجيا - علم الانسان - بما يحلل من تاريخ قديم وحديث وبما يدرس من لغة ووثائق دينية وبما يقيس من أجسام وصفات تشريحية ووراثية ... إلخ .

ونحن نلاحظ أن اغلب كتاباتنا فى العربية عن العدو الاسرائيلى تأخذ فى جملتها الصبغة السياسية المباشرة أو غير المباشرة التى تعامل العدو كمعطيات مفروغ منها أو ككم معلوم بدرجة أو بأخرى دون أن تحاول أن تنفذ الى حقيقة كيانهم وتركيبهم : فالكل يهود أو صهيونيون ، والكل يعيشون فى كنف الاستعمار وحمايته ، والكل اتى بصورة غامضة من نسل يهود الشتات الذين أتوا بدورهم بطريقة ما من سلالة يهود

فلسطين التوراة ... الخ . وفى هذا الاطار التجريدى الضيق ، أو المتعجل غير المستأنى - الذى قد يكون عمليا ومفهوما فى ذاته - تبدو صورة العدو فى أذهاننا باهتة عائمة بالغة السطحية ، ونبدو أحيانا - أكاد أقول - كما لو كنا نطارد شبحا ! ونحسب اننا لهذا كله بحاجة الى دراسة علمية محققة تقتنص هذا الشبح ، تجسده ، ثم تشرحه أصلا وتاريخا ، جنسا وتركيبا ، تطورا وتوزيعا ... إلخ .

ونحن هنا سنبدأ بالاصول القديمة فى التاريخ الجنسى والدينى ، ثم نتتبع انتشار اليهود فى العالم هجرات وتوزيعا ، حتى إذا ما اكتملت لنا الصورة الراهنة حللنا التكوين الانثروبولوجى لليهود حتى نعرف من هم وما الدماء التى تجرى فى عروقهم ، وإلى أى حد ينتمون الى أصولهم الأولى ومن ثم الى اية درجة من القرابة ينتسبون إلى العرب أو ينتسب العرب إليهم .

وفى تقديرنا ان مثل هذه الدراسة اصبحت ضرورة شرطية لأى فهم عربى سليم او عرض لقضيتنا الكبرى بعد أن اختلط الأمر بالدعايات الصهيونية المغرضة المضللة وتزييف التاريخ وابتسار الحقيقة العلمية ذاتها . كذلك لابد أن نبادر من البداية فنحذر من ان كثيرا من الكتابات العلمية البحتة فى الموضوع ينبغى ان تتناول بحذر واحتراس شديدين لانها تعتمد ـ فعلا إن لم تعترف علنا ـ على المصادر اليهودية والصهيونية اساسا ، وهى من ثم قد تنقل عمدا أو عن غير عمد وجهات نظر محددة ومحسوبة سياسيا .

ونحن من جانبا ـ علي صعوبة المحاولة نفسيا وقوميا ـ لن نترك لتحيزنا السياسى الحق والواجب أن يتدخل فى معالجة علمية موضوعية ، لا لسبب إلا لأن الدراسة العلمية الخالصة تؤازر ـ كما يتفق ولحسن الحظ ـ القضية السياسية وتدعمها ولاتتعارض معها فى الجوهر والصميم . إن الحق والحقيقة ـ كما سنرى ـ فى جانبنا على حد سواء .

فى التاريخ القديم

اول مانسمع عن اليهود فى التاريخ مع ابراهيم ـ ابى الانبياء ابراهيم الخليل ـ الذى ظهر مع قومه فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد كجماعة من الرعاة الرحل على المشارف والتخوم الاستبسية لجنوب العراق الذى كان يؤلف دولة الكلدانيين فى أور . ومن قبل كان ابراهيم وقومه قد خرجوا من قلب الجزيرة العربية التى نشئوا فيها كجماعة من الجماعات السامية العديدة التى تأصلت فى ذلك "الخزان البشرى" الشهير الذى لم يتوقف عن أن يقذف ـ كاقليم طرد وكصحراء فقيرة ولكنها "ولود » ـ يقذف بالموجة تلو الموجة الى منطقة الهلال الخصيب المتاخمة والجذابة .

ففى حوالى ١٨٠٠ ق . م هاجر ابراهيم وقومه ، فى دورة عكس عقارب الساعة ، شمالا بغرب ثم جنوبا على طول حواف الهلال الخصيب حتى وصلوا الى حوران ثم إلى فلسطين . وهناك

سيولد له اسحق ، ولاسحق سيولد يعقوب ، ومن أبناء يعقوب الاثنى عشر ستتأصل الأسباط أو القبائل الاثنتا عشرة الشهيرة فى التاريخ والتوراة .

ولكن هجرة ابراهيم الى فلسطين وإن كانت اولى هجرات القبائل اليهودية فانها لم تكن الاخيرة . ذلك انهم لم يأتوا مرة واحدة كجسم موحد ، وإنما على عدة دفعات جاءوا ومن عدة طرق وتحت عدة قيادات . والهجرة الثانية مثلا كانت فى القرن ١٤ ق . م .

ولابد لنا هنا من وقفة سريعة عند تسمية - أو بالأحرى تسميات - اليهود . ثمة تسميات ثلاث مترادفات : اسرائيل والعبريون واليهود . والأولى نسبة مباشرة إلى اسرائيل ، الاسم البديل ليعقوب . اما العبريون فالمقول أنها مشتقة من هجرتهم من كلدان إلى كنعان حيث "عبروا" النهر - نهر الفرات أو نهر الاردن لاندرى أيهما المقصود تماما - فسموا بالعبرانيين . ويقابل هذه

التسمية عند المصريين القدماء كلمة .Habiru ، وعند البابليين Khebirru، ولو ان هذه وتلك تعنى ، فى رواية ، البدو او اللصوص او المرتزقة كما وصفهم اعداؤهم فى كنعان اشارة الى طبيعتهم كرعاة متخلفين حضاريا بالنسبة لهم . أما التسمية باليهودية فتدل أصلا على ابناء يهودا Jehudah,Judah أحد أبناء يعقوب، الذين أصبحوا يمثلون البقية المهمة من بنى اسرائيل بعد الأسر البابلى ، فصارت تطلق فيما بعد على الاسرائيليين جميعا . واسم يهودا نفسه قريب من اسم اله الشعب يا هو Jahveh, Jehovah التى قد تكون بدورها تحريفا للنداء العربى ياهو (؟) .

كيف وجد اليهود فلسطين ؟ وجدوها أرض كنعان اساسا ، نسبة الى سكانها الكنعانيين . والكنعانيون فى التوراة ابناء كنعان بن حام بن نوح ، وهم اول من سكن فلسطين على أرجح الآراء . وفى الدراسات السامية القديمة ان الكنعانيين - هم الآخرين - قبيلة سامية من الساميين الشماليين ، جاءت اصلا من الجزيرة

العربية منذ ٢٥٠٠ ق . م - وفى رواية أخرى منذ ٣٥٠٠ ق . م - وكانوا قد استقروا بفلسطين منذ الف - او الفى سنة واقاموا بها حضارة راقية . كذلك فان جزءا من الكنعانيين كان قد رحل منها إلى الساحل اللبنانى حيث عرفوا بالفينيقيين . ومعنى أرض كنعان هو الأرض المنخفضة .

إلى جانب الكنعانيين فى فلسطين كان ثمة كوكبة أخرى من القبائل السامية الصغرى كالايدوميين والعمونيين والمؤابيين على تخوم ارض كنعان ، خاصة حول جنوب البحر الميت . وثمة كذلك كان العموريون بعيدا الى الشمال ، وهم اولاد أناك Anak فى التوراة ، وكانوا قد سيطروا على جزء كبير من فلسطين قبل الزحف المصرى الفرعونى نحو الشمال حوالى ١٦٠٠ ق . م .

وحتى نستكمل الصورة ، يحسن أن نذكر ايضا - خارج فلسطين ولكن بجانبها توا - الأراميين الذين استقروا فى سوريا كموجة سامية منذ القرن ١٤ ق . م ، اى فى تاريخ يتعاصر مع الموجة الثانية للعبريين .

ولايبقى لنا الآن فى التتابع التاريخى سوى الفلسطينيين Philistines الذين يعدون - وحدهم تقريبا من بين كل العناصر والموجات المذكورة أحدث عهدا من العبرانيين فى المنطقة . اصل هؤلاء من "شعوب البحر Sea-Peoples " المشهورين فى التاريخ القديم والذين اتوا من العالم الإيجى بعامة وانتشروا فجاة وبصورة درامية على سواحل اللفانت أو مشرق البحر المتوسط نتيجة اضطرابات فى موطنهم لعلها نجمت بدورها عن تدفق الاغريق . فقدر للفلسطينيين - الذين يرجح البعض كريت أصلا لهم - أن يستقروا على ساحل ارض كنعان فى ١٢٠٠ ق . م ، اى أيام حروب طرواده ، حيث أعطوها اسمهم منذئذ .

وقد كان على العبرانيين ليستقروا بأرض كنعان ان يحاربوا الكنعانيين ، ولكنهم لم يسيطروا إلا على التلال والاراضى الفقيرة الداخلية ، وظلت السهول الغنية فى ايدى الكنعانيين الاصليين . واغلب تاريخ اليهود فى تلك المرحلة تاريخ دموى

لا اخلاقى يدور حول الحرب والغزو ، إلا أن الهزيمة كانت من نصيبهم غالبا ، وعلى يد الفلسطينيين أقوى أعدائهم بصفة خاصة . حتى اذا كان منتصف القرن ١٧ ق . م ، أى بعد ١٥٠ سنة فقط من هجرة ابراهيم ، هاجر يعقوب واولاده الى مصر بسبب القحط المشهور . وفيها استقروا بأرض جاشان Land of Goshen (وادى الطميلات والشرقية) نحوا من ٣٥٠ سنة إلى أن خرج بهم منها سيدنا موسى (من الجيل السابع بعد ابراهيم) حوالى ١٢٠٠ ق . م وذلك هربا من اضطهاد فرعون (رمسيس الثانى) الذى استبعدهم "ومرر حياتهم فى الطوب والملاط" انتقاما منهم لتعاونهم فى خيانة واضحة مع الهكسوس غزاة مصر .

وفى التوراة أن قوة هذا "الخروج" كانت ٦٠٠ الف نسمة . وكانت العودة الى ارض كنعان الهدف ، غير أن خوف اليهود من الكنعانيين "العمالقة" أدى بهم إلى المعصية فعقاب التيه فى سيناء ٤٠ سنة . ويرى البعض أن الحكمة من

التيه ، الذى امتد بذلك الى مدى جيل كامل تاريخيا فى بيئة صحراوية قاسية جغرافيا ، هو اخضاع اليهود لعملية صارمة من "الانتخاب الطبيعى" تصفى وتستبعد منهم العناصر الضعيفة الخائرة وتنتخب العناصر القوية الصلبة ، وبذلك تديل من جيل هش منسحق إلى جيل مجدد فوار يصلح للرسالة . وهكذا كان ، الى أن قادهم يشوع الى نهر الاردن حيث انتزعوا بعضا من أرض كنعان فى الداخل ، ولكن دون العاصمة يبوس (القدس) وساحل الفلسطينيين .

وفى فجر الالف الاولى قبل الميلاد بالضبط (بالتحديد عام ١٠٠٠ ق م) وحد داود الاسباط أو قبائل اسرائيل الاثنتى عشرة ، وهزم اليبوسيين والفلسطينيين واسس ووسع مملكة اسرائيل حتى امتدت "أرض اسرائيل Frets Israel" من دان فى الشمال الى بير سبع فى الجنوب . واتخذت من يبوس عاصمة لها بعد أن تحول اسمها الى أورشليم Ierouschoulaim أى مدينة السلام . غير أن الدولة - التى لم تصل قط او لم تصل إلا بالكاد الى الساحل - لم تلبث أن انشطرت بعد

خليفته سليمان صاحب الهيكل الى مملكتين : مملكة يهوذا جنوبا فى هضبة يهودية ، وتضم قبيلتى يهودا وبنيامين ، ومملكة اسرائيل شمالا فى السامرة ، وتضم القبائل العشر الباقية . ومن المهم والطريف أن نلاحظ أن حدود هاتين الدولتين تتفق الى حد أو آخر لا مع رقعة اسرائيل المزعومة حاليا وإنما مع رقعة الضفة الغربية من دولة الاردن .

والمهم أن الدولتين ، اللتين أصبحتا متعاديتين متحاربتين ، وقعتا فى سياسة المضاربة بين مصر والعراق أو الخضوع لهما ، فتعرضت المملكة الجنوبية لطرقات مصر مرتين الاولى على يد شيشنق والثانية على يد نخاو ، الى أن جاء دور المملكة الشمالية حين قضى عليها نهائيا سرجون الأشورى فى القرن ٨ ق . م (عام ٧٢١) ثم قضى نبوختنصر البابلى على الجنوبية فى القرن ٦ ق . م حيث دمر أورشليم والهيكل (٥٨٦ ق . م) . وبذلك زالت الى الابد دولة اليهود فى

فلسطين بعد حياة طولها اربعة قرون فقط يغلب عليها الطابع الدموى العنيف ، بينما ان كل اقامة اليهود المتصلة فى فلسطين لم تزد على ستة قرون من ١٢٠٠ ق . م حتى ٥٨٦ ق . م .

الشتات

الشتات البابلى

واذا كانت الفترات السابقة معا هى المرحلة التكوينية – سفر التكوين – فان من بعدها يبدأ سفر الخروج والشتات Diaspora الذى يمكن أن نميز فيه ثلاث دورات أو أربعا . فقد بدأ سرجون بنقل كثير من اسرائيلى السامرة من أبناء القبائل العشر الى بابل واسكن مكانهم بعض أسراه من البلاد المفتوحة الاخرى . ولكنه نبوختنصر بالذات الذى نقل اغلبية اليهود – اخرون يقولون ربع سكان يهودية – أسرى الى بابل ، والمقدر أن عدد اليهود قبل ذلك بلغ زهاء ثلاثة ارباع المليون .

ذلك كان "الاسر البابلى" الشهير الذى يمكن أن يعد الشتات الاول . واذا كان الفرس ، بعد ان هزموا بابل (على يد كسرى ٥٣٨ ق . م) واحتلوها وممتلكاتها فى فلسطين ، قد سمحوا لليهود بالعودة إلى أورشليم بعد نصف قرن من الأسر البابلى ، فإن قلة ضئيلة هى التى عادت ، وتقدر بنحو ٥٠ الفا ، وحتى هذه لم تجد ترحيبا لان ارض أجدادهم كان يحتلها الآن اسرى سرجون الذين وطنوا بها ، ولذلك أسكنوا فى منطقة يهودية الجنوبية حيث لم يطرب لعودتهم حتى اليهود المقيمون انفسهم .

اما الاغلبية المطلقة منهم فقد بقيت فى العراق حيث كونت مستعمرات مهمة نمت حتى بلغت فى عهد المسيح مليونا بل وأكثر من المليون فى القرون التالية إبان العصور العربية الاسلامية . وقد امتد انتشار اليهود فى العراق شمالا إلى كردستان . غير أن يهود العراق – مع كل سكانه – تعرضوا للابادة مع الطوفان المغولى حيث هوى عددهم الى بضعة آلاف فقط . على أن يهود

العراق كانوا نواة الشتات شرقا . فمنهم انشطر يهود فارس الذين غادروا العراق لأول مرة فى عهد كسرى ، ولكن هجرتهم الكبرى كانت فى القرن الثانى عشر الميلادى . وبالمثل كان يهود هيرات فى افغانستان ويهود بخارى وسمرقند فى التركستان شظية من نواة فارس .

كذلك يقال أن يهود القوقاز – الذين يردون مستعمراتهم المبعثرة فى تضاعيف جبالها هناك الى العصر الاشورى ، ولو أن أول ذكر لها تاريخيا يرجع إلى القرن الخامس الميلادى – يقال إنهم أتوا من فارس ونواتها القديمة . ومن هذه المراكز الأولية والثانوية يمكن أن نتتبع انتشار اليهود حتى نهاياته ومستعمراته القصوى فى الشرق الاقصى بالهند والصين .

ولعل من الجائز لنا أن نذكر هنا يهود الجزيرة العربية قبل الاسلام ، ولو أننا لانعرف على وجه الدقة تاريخ ظهورهم بها والطريق التى سلوكها اليها ، ومن ثم لاندرى اذا كان امتدادهم اليها

يرتبط بالشتات البابلى او بما تلاه من شتات . ففى الجاهلية الأخيرة كان اليهود غير قليلين فى مدن وسط الجزيرة وجنوبها خاصة الحجاز واليمن . ففى الحجاز كانت المدينة وخيبر من معاقلهم ، بل كانت المدينة تحمل اسما يهوديا هو يثرب . غير أن الأرجح أن يهود الجزيرة كانوا فى معظمهم عربا محليين متحولين وليسوا من يهود فلسطين الوافدين . أما فى اليمن بالذات فقد تحولت أعداد كبيرة من سكان العصر السبئى الى اليهودية ، بل كان أحد ملوك سبأ فى القرن السادس الميلادى يهوديا هو ذو النواس . كذلك فقد كان المهاجرون الحضارمة الذين عمروا الحبشة وأسسوا الامبراطورية الحبشية يهودا أصلا ثم تحولوا مبكرا الى القبطية غير أن ظهور الاسلام صفى اليهودية تماما فى الجزيرة العربية نفسها فيما عدا اليمن حيث ظل اليهود الى وقتنا هذا .

هذا ، واذا كان شتات الأسر البابلى قد اتجه أساسا نحو الشرق ، فمن المحتمل أن بعض الهجرة اتجهت غربا الى شمال افريقيا (المغرب)

حيث يدعى اليهود ممن يسكنون الجبال اليوم ويتكلمون البربرية أن أجدادهم تركوا فلسطين اليها قبل الأسر البابلى نفسه ، وحيث يسمون أنفسهم البلشتيم Plishtim والكلمة تحريف واضح لفلسطين . بل هناك من يرى أن من المحتمل أن اليهود دخلوا شمال افريقيا مع الفينيقيين ، والمؤكد على أية حال أن اليهودية كانت منتشرة ـ بالتحول ـ بدرجة ما فى حين مابين عدة قبائل بربرية حتى ماقبل قدوم الاسلام .

الشتات الهللينى

أما الشتات الثانى من شتات اليهود فيتعاصر مع المرحلة الهللينية التى بعد قرنين من السيادة الفارسية ، تبدأ بفتوح الاسكندر وتستمر مع السلوقيين والبطالسة ثم البيزنطيين . والاتجاه العام فى هذا الشتات هو نحو الغرب هذه المرة . فاذا كان بعض اليهود فى فلسطين قد قاوموا الصبغة الهللينية بعنف وقاموا فى القرن الثانى

قبل الميلاد بالثورة المكابية المتعصبة التى انشأت دولة يهودية ضد ـ هيللينية ، فان الكثيرين منهم انتشروا انتشارا واسعا بعيد المدى فى كل العالم الهللينستى والبيزنطى .

ففى مصر قدر أن ثلث سكان الاسكندرية البطلمية كان من اليهود ، كما يقال أنهم قاموا فيها بثورة قتلوا فيها ٢٢٠ الفا من السكان الأصليين (؟) . وعدا مصر ، فقد وجد اليهود فى سوريا وآسيا الصغرى من قبل بدرجة أو باخرى . وعدا هذا وذلك ، كان ثمة مركزان رئيسيان لتركز اليهود : البلقان ، وسواحل البحر الأسود الشمالية ، وكل يسبق العصر المسيحى بوقت طويل . وربما أرسل يهود البلقان منذ ذلك الحين عناصر منهم الى جنوب الروسيا خاصة كييف حيث كانت المنطقة خاضعة بشدة للمؤثرات البيزنطية . اما مركز ساحل البحر الأسود فكان قطبه القرم حيث ذهب كثير من اليهود مع الإغريق بعد الاسكندر . وقد أفلت هؤلاء اليهود من طرقات وموجات القوط والهون والتتار التى اجتاحت جنوب الروسيا .

غير أن للتتار هنا دورا مهما فى التاريخ اليهودى . فقد قامت منهم دولة فى القرن السابع الميلادى هى دولة الخزر التترية التى تحولت بالجملة تماما فى رواية أو تحول حكامها وطبقاتها العليا فى رواية أخرى ، الى اليهودية فى القرن الثامن أى أيام شارلمان ، بينما ـ بالمقابل ـ تحول اليهود المهاجرون الى لغة الخزر التركية المسماة بالجاجتاى Jagatai وبهذا أصبح فى المنطقة يهود أصليون مهاجرون ويهود متحولون من السكان المحليين .

وقد كان للخزر مركزان ، واحد على سواحل بحر قزوين (بحر الخزر عند العرب المعاصرين) عند مصب الفولجا ، والثانى فى القرم . وقد ألغى المركز القزوينى فى القرن العاشر الميلادى ، ولكن المركز القرمى ظل حتى القرن الحادى عشر الى أن تحطم على يد دولة كييف السلافية الجديدة التى تمثل طلائع الدولة الروسية الحديثة . وعندها انتشر كثير من الخزر من يهود

ومتهودين فى أجزاء كثيرة من جنوب الروسيا ، بالاضافة الى ماعسى أن يكون دخلها من قبل من يهود البلقان المهاجرين حيث يمكن أن نتتبع ظهورهم - على الطريق - فى روثينيا فى القرنين ١٠ - ١١ ، وفى بولنده فى القرنين ١٢ - ١٤ . وفى القرن الثانى عشر (عام ١١١٠ بالتحديد) منعت الروسيا نهائيا دخول اى يهود جدد بها وحددت للموجود منهم مناطق معينة لايقيمون خارجها ، وهى التى ستؤلف النطاق الذى سيعرف « تاريخيا بحظيرة اليهود Jewish Pale »

الشتات الرومانى والوسيط

يبقى لنا الآن الشتات الثالث والأخير فى تاريخ اليهود القديم . انه الشتات الرومانى الذى أخذهم بعيدا الى العالم الرومانى أى الى الغرب الاقصى بالنسبة الى الموطن الأصلى فلسطين ، وذلك فى حركة مع عقارب الساعة ستستمر عبر العصور الوسطى حتى العصور الحديثة . وقد بدأ هذا

الشتات فى الواقع مع الثورة المكابية ، لكنه اكتمل مع الفتح الرومانى لفلسطين الذى يكاد يتعاصر بدقة مع بداية العصر المسيحى .

فلقد تواترت ثورات اليهود - الذين لم يعودوا يزيدون على أقلية من سكان فلسطين - على الحكم الرومانى الذى رد بتخريب أورشليم والهيكل وبابادة اليهود فى مذبحة سنة ٧٠ ميلادية الفاصلة (تيتوس) التى صفت أغلبهم محليا وفر منها أقلهم الى مصر وسوريا . غير أن بقايا اليهود عادوا الى الثورة فى ١٣٥ ميلادية حيث قوبلوا بمذبحة نهائية (هادريان) ختمت الى الأبد على مصير اليهود فى فلسطين كدولة وكقومية . فعدا تدمير اورشليم والهيكل مرة أخرى ، صفيت بقايا اليهود بالإبادة والهجرة .

فعن الأولى يقول جوزيفوس المؤرخ Josephus ان ١ر٣٥٠ر٠٠٠ قتلوا فى المعارك التى يعددها ، كما يقال أن ٩٠٠ر٠٠٠ آخرين أسروا أو بيعوا كرقيق ، كما مات مئات من الآلاف غيرهم من المجاعات والأوبئة والمذابح . ويعلق هنتنجتون -

وهو جغرافى يهودى لايخفى تعصبه - بأن هذه أرقام مبالغ فيها بلا شك ، ويمكننا نحن ان ننبذها ونعدها خرافية تماما لان الادلة التاريخية واشارات التوراة نفسها كما رأينا تضع كل تعداد اليهود فى حدود تقصر دون ذلك كثيرا جدا ولاتتجاوز ثلاثة ارباع المليون كحد اعلى . ومن الناحية الاخرى فان البعض يقدر أن عدد من أبيد من اليهود فى هذه الثورة لايقل عن ٦٠٠ الف . فاذا صح هذا الرقم ، ولعله أدنى الى العقل ، فذاك انقراض جنسى حقيقى لم يكد يترك منهم شيئا .

وحتى هذا الذى تبقى تكفلت الهجرة القهرية بتصفيته . فقد حرم الرومان على اليهود دخول القدس نهائيا ، وطردوهم من فلسطين الى كل اجزاء الامبراطورية ، وكان هذا هو التاريخ الذى انتهت فيه والى الابد علاقة اليهود بفلسطين سياسيا وسكانيا . انه الخروج الأخير . كذلك فقد قتل أو طرد كل اليهود فى قبرص . وحتى ندرك مدى ضآلة ماتبقى من اليهود بعد هذه المذابح

والمطاردات ، يكفى أن نذكر أن عدد يهود الخروج الأخير هذا يقدر بنحو ٤٠ ألفا فقط ! وهو رقم لابد ان نتذكره دائما لما سيكون له من دلالات جنسية وتاريخية وسياسية عميقة المغزى .

أما ماتبقى بعد هذا وذاك من يهود بفلسطين فشراذم ضئيلة ازدادت تناقصا فيما بعد بتحول بعض افرادها الى المسيحية . ولعل أهم تلك البقايا السامريون الذين تحولوا الى قوقعة قزمية مغلقة فى نابلس(Schechem القديمة) حتى انها لاتزيد اليوم على مائة أو مائتين ! وفى بداية القرن التاسع عشر لم يكن عدد اليهود فى فلسطين كلها ليزيد على ١٠ الاف نسمة ..

والملاحظ ان تحولا جذريا طرأ على اليهود بعد هذه الإبادة الشاملة والتشريد . فتاريخهم قبل عصر التوراة وبعده تاريخ دموى حربى كله الغزو والعدوان . وتغلب عليهم فيه صفة الشراسة والعنف . أما بعد مجازر الأشوريين والبابليين ثم الرومان فقد تحول اليهودى فجأة الى شخصية

مستضعفة خانعة تحقق أغراضها بالوسائل الناعمة والملتوية وبالتزلف والمكر والخديعة . ويرجع هنتنجتون هذا التحول فى الشخصية الجماعية الى عملية الانتخابات التى فرضتها تلك المجازر حيث بادت فيها العناصر المناضلة المقاومة ولم يبق إلا عناصر الجبن والمسكنة والخبث ... الخ . ومنها ومن حينها اخذ اليهود طابعهم الذى عرفوا به فى كل العالم حتى اليوم .

على ان يهود الشتات الرومانى لم ياتوا من طريدى فلسطين وحدها وإنما كذلك من كل مستعمراتهم السابقة القائمة فى العالم الهللنستى . فتبعوا الرومان الى إيطاليا واسبانيا وفرنسا والمانيا حتىّ الراين ، وكان طريق الرون ـ الراين ـ فرانكفورت ، وهو طريق التجارة وشريانها التقليدى ، خطا محوريا فى دخولهم العالم الرومانى . ومنذ القرن الثالث الميلادى على الأقل كانوا قد وصلوا الى الراين ، حيث تحولت فرانكونيا بالذات الى قاعدة رئيسية ونواة لهم وكادت عاصمتها فرانكفورت أن تكون عاصمة يهود

الشتات الجديد . ومنذ ذلك الوقت نشأت علاقة تاريخية وثيقة بين مدينة فرانكفورت واليهود ستظل عبر القرون حتى يومنا هذا .

ويقدر البعض عدد اليهود فى الامبراطورية الرومانية فى القرن الخامس الميلادى بما يتراوح بين ٤ ، ٧ ملايين اى نحو ٧ ٪ من مجموع السكان . وهذا الرقم ـ أيا كان نصيبه من الدقة أو الصحة ـ ينبغى أن نذكره جيدا وان نقرنه فى الذاكرة بعدد بقايا يهود فلسطين عند الخروج الأخير والبالغ ٤٠ الفا ، لان معناه ان اليهود فى الشتات ضاعفوا عددهم بين ١٠٠ ، ١٨٠ مرة فى اقل من ٥٠٠ سنة (!) وهو معدل فلكى لايمكن إلا أن يلقى ضوءا حاسما على طريقة نموهم ، إن تزايدا طبيعيا أو تزايدا بالتبشير والتحول .

بيد أن العصور الوسطى لم تلبث ان اتت بحروبها الصليبية التى اشعلت نار الاضطهاد الدينى ضد اليهود فى جميع أنحاء اوروبا مثلما اثارتها ضد العرب خارجها وعلى . اطرافها

ومشارفها . هنالك بدأت عمليات الطرد بالجملة والإبادة التى ستؤدى فى النهاية الى تغيير جذرى فى توزيع اليهود فى أوروبا . ففى أواخر القرن الرابع عشر (عام ١٣٩٤) اختفى يهود فرنسا تماما بعد أن طردوا بالجملة منها وتشتتوا فى الدول المجاورة . أما يهود ايطاليا فظلوا متقوقعين بها حيث يتصل تاريخهم بلا انقطاع وحيث تلقوا - فضلا عن ذلك - هجرات من يهود بلاد أخرى فيما بعد .

أما يهود ألمانيا واسبانيا فسوف يكون لهم الدور الأكبر فى قصة اليهود فى العصور الحديثة . فهؤلاء هم الذين تعرضوا لأشد أخطار الإبادة والطرد ، ومنهم ومن نسلهم سيستمد التقسيم الثنائى الرئيسى الذى يفرق بين يهود شمال أوروبا من ناحية وجنوب أوروبا وحوض البحر المتوسط من ناحية أخرى ، أعنى ثنائية الأشكناز والسافردى على الترتيب Sephardim والاشكنازيم Ashkenazim والسفارديم كلمتان قديمتان فى التوراة استعارتهما التقاليد اليهودية

فى العصور الوسطى لتميز بين يهود ألمانيا ويهود اسبانيا على الترتيب ، اعتقادا منهم بأن يهود ألمانيا ينحدرون من نسل قبيلة يهودا ، ويهود اسبانيا من نسل قبيلة بينامين . والسفارديم يعدون أو يدعون أنفسهم "ارستقراطية" اليهود على الأساس الدينى ، غير أنه قدر للأشكناز أن يؤلفوا الاغلبية الساحقة عدديا - ٨٠ الى ٩٠ ٪ فيما يقدر - والطبقة المسيطرة المتفوقة حضاريا الى حد يحتقرون معه السفارديم احتقارا لايحفلون باخفائه .

فاذا عدنا الى الشتات وبدأنا بالأشكناز ، وجدنا أن أول اضطهاد يتعرض له يهود الراين بألمانيا يبدأ مع الحملة الصليبية فى القرن الحادى عشر (١٠٩٦) ولو أنهم كانوا قد بدأوا يتسربون الى العالم السلافى فى بوهيميا وبولنده قبل ذلك بقرنين أو أكثر . هنالك بدأت الهجرة الهاربة التى تسارعت خطاها مع الحملات التالية والتى اتجهت أساسا نحو الشرق . ونحو الشرق اتجهت لأن ملوك بولنده ، الذين كانوا يعملون على

زيادة سكان مدنهم ، رحبوا بكل هجرة . فاغتنم اليهود الفرصة ، وكان خروجا بالجملة وصل الى حد اثار فى النهاية مخاوف بولنده . غير أن انتقال جسم الأشكناز كان قد تم نهائيا ، وتحولت نواة فرانكونيا القديمة الى مجرد بقايا أو إلى شبح يذكر بالتوزيعات التاريخية الأولى ، وفى نهاية القرن السادس عشر لم يكن ثمة سوى ثلاث مدن المانية مفتوحة لليهود هى فرانكفورت وفرمس Worms وفيرت Furth.

اما فى بولنده وجنوب الروسيا فقد التقى اليهود الألمان مع بقايا اليهود البيزنطيين ويهود الخزر الذين كانوا بدورهم قد بدأوا يطاردون نحو الشمال والغرب على يد الاضطهادات السياسية الشهيرة المعروفة فى الروسيا بالبوجروم Pogroms، والتى اتسع نطاقها ليشمل يهود بولندة بعد تقسيم هذه الدولة وانتقال الشطر الاكبر منها الى الروسيا . وتتمثل آثار هذا اللقاء الآن من بين ماتتمثل فى يهود القرم الذين ينقسمون الى يهود قرائين ، والى يهود القرمشاك Krimshaks الربانيين، كما تتمثل فى يهود ليتوانيا القرائين .

والمهم أن ذلك اللقاء تحول - ولم يكن له بد من أن يتحول - ليس فقط الى شملية تراكم عددى وتكثيف وتكتيل لليهودية ستعطينا واحدة من كبريات تجمعاتها فى العالم حتى اليوم ، وإنما تحولت كذلك الى عملية خلط ومزج وصهر سيسود فيها يهود الغرب الألمان عدديا وحضاريا على السواء . ومن أوضح وابسط مظاهر هذه السيادة اللغة الجديدة التى نشأت عن التفاعل وهى اليديشية Yeddish المستمدة من اللهجة الألمانية العليا Hoch Deutsch التى حملها معهم يهود الغرب- وكلمة يديش نفسها تحريف واضح لكلمة يهودى بالالمانية - والتى ستصبح اهم لسان بين السنة اليهود التى لا حصر لها .

اما عن السفارديم فتبدأ قصتهم مع طرد اليهود - جنبا الى جنب مع العرب .: من اسبانيا فى حروب ، "الاسترداد Reconquista » عام ١٤٩٢ بعد عصر من الاضطهاد والإبادة على يد محاكم التفتيش . والمقدر أن عدد يهود اسبانيا العربية وصل فى حين ما إلى حد المليون نسمة . ر٣،

انتشر هؤلاء اليهود فى فترات مختلفة الى هولندا وانجلترا ، والى ايطاليا وفرنسا ، ولكن خاصة الى شمال افريقيا ابتداء من مراكش حتى تونس ، وبالأخص الى الامبراطورية العثمانية . ففى الامبراطورية العثمانية الحديثة التوسع وجدت الأغلبية الساحقة من السبفارديم موطنها الجديد ، ابتداء من البلقان والدانوب حتى الاناضول والشـرق الأوسط حيث كـانت سـالـونيـك والقسطنطينية من اهم بؤرات تجمعهم ، وحيث التقوا باليهود القدامى من بيزنطيين وسابقين للعصر البابلى سواء غرباء مهاجرين أو محليين متحولين .

وفى كثير من هذه المهاجر الجديدة اصبح السفارديم - كالاشكنازيم فى مهجرهم الجديد - هم السائدين عدديا بين الجاليات اليهودية ، بل كادوا ان يكونوا العنصر الوحيد فى يهود مدن البلقان . وفى كل هذا المجال الجغرافى اطلق عليهم اسم الاسبانيولى Spaniol, Spagnuoli كما حملوا اليه - كالاشكناز - لغتهم الاسبانية المحرفة

المعروفة باسم اللادينو Ladino ، وظلوا حتى اليوم يلبسون لباسا خاصا ويبدون خصائص حضارية وثقافية تذكر بقوة بفترة إقامتهم الاسبانية .

الشتات الحديث

تلك قصة "اليهودى التائه أو المتجول" من أول شتات قبل الميلاد الى آخر شتات فى مطالع العصور الحديثة . بيد أن هناك حلقة رابعة تتمم السلسلة ، وتتركز فى القرن أو القرنين الأخيرين ، ولا باس أن نشير هنا بايجاز الى خطوطها العريضة ولعلها خطان رئيسيان أو ثلاثة . وفيها جميعا سيكون الدور الأكبر بطبيعة الحال للاشكنازيم بحكم سيادتهم العددية ، واذا كان السفارديم قد ساهموا فى الشتات الحديث فبقدر محدود .

والانتشار الأول والأهم فى الفترة المعاصرة هو بلا شك انتشار العالم الجديد بمعناه الواسع

والولايات المتحدة بصفة خاصة ، ويمكن ان نميز فى هجرة اليهود الى أمريكا الشمالية مراحل ثلاث ، لكلٍ منها قطبها الجغرافى ، وثلاثتها ترسم معا حركة واضحة من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى . فالأولى تتفق مع مايعرف فى التاريخ الأمريكى "بالعصر الاستعمارى" فى القرنين السادس عشر والسابع عشر . ومصدرها الرئيسى اسبانيا والبرتغال ، وقوامها السفارديم أساسا ، وطلائعها الأولى مبكرة حقا تتعاصر مع الآباء المهاجرين والبيورتان ، ولكنها فى الجملة قوة محدودة عدديا .

أما المرحلة الثانية ففى أواسط القرن التاسع عشر تقع ، وترتبط أساسا بأواسط أوروبا : المانيا بالدرجة الأولى ثم فرنسا . ذلك عصر الثورات والاضطرابات السياسية التاريخية فى القارة ، فكان خروج يهودى نشيط حمل الى الولايات المتحدة نحو ربع المليون : فالمقدر أن ثورتى ١٨٣٠ ، ١٨٤٨ قذفتا إليها بنحو ٢٣٠ الف يهودى .

أما المرحلة الثالثة ففترة ممدودة حول دورة القرن من ١٨٨٥ الى ١٩١٤ ، وكان قطبها المركزى فى الارسال الروسيا القيصرية يحف به هالة تشمل النمسا ـ المجر ورومانيا . وقد دخل الولايات المتحدة من اليهود بين ١٨٨١ ، ١٩١٠ زهاء ١ر٥٦٢ر٠٠٠ ، منهم ١ر١١٩ر٠٠٠ من الروسيا ، ٢٨١ الفا من النمسا ـ المجر ، ٦٧ الفا من رومانيا . وفيما بين ١٩٠٠ ، ١٩١٣ فقط هاجر من الروسيا ٩٦٤ الف يهودى الى الولايات المتحدة ، ٦٠ الفا الى كندا .

ذلك إذن تيار كثيف عرم من وسط وشرق أوروبا انفجر مع استمرار الاضطهاد والغربة من جهة ومع فتح باب الهجرة الى الولايات المتحدة من جهة أخرى ، انفجر ليستقر فى أمريكا الشمالية منذ العشرينات من القرن الحالى وليصبح فيما بعد أضخم تجمع لليهود على وجه الأرض على وجه الاطلاق . كذلك انطلقت الهجرة الى أمريكا اللاتينية بأغلب وحداتها السياسية خاصة البرازيل والأرجنتين .

اما فى العالم القديم فقد كانت كثافة وقوة الهجرة اقل بكثير ، وكانت استراليا وجنوب افريقيا هما القطبين الاساسيين فيها ، غير اننا لاينبغى أن ننسى المجال السوفيتى حيث هجر بعض من يهود الروسيا الى الشرق الاقصى السوفييتى واقيمت لهم جمهورية خاصة هى جمهورية بيروبيدجان Birobidjan اليهودية فى حوض الأمور . ومحصلة كل هذه الهجرات أن الانتشار الحديث توزع فى كل الاتجاهات ، أى على اطار دائرى حول النواة التاريخية القديمة ، ولكن مركز ثقله المطلق كان دائما صوب الغرب الأقصى استمرارا لاتجاه المحور الأسى فى كل حركة الشتات اليهودى عبر التاريخ .

بعد هذا تمثل الفترة النازية فى المانيا الهتلرية دورة شتات جديدة . فقد أدى الاضطهاد النازى لليهود ، الذى وصل الى قمته فى عمليات الابادة الجماعية التى يقدر البعض جملة حصادها إن خطأ او صوابا وأن حقا او مبالغة بنحو خمسة ملايين يهودى ، أدى هذا الى حركة خروج او

بالأحرى هروب من الرايخ وأوروبا الوسطى بعامة . وإذا كانت هذه الحركة قد جمعت كثيرا من يهود أوروبا فى فلسطين أثناء الحرب العالمية الثانية ، فإن الجزء الأكبر منها اتجه الى العالم الجديد خاصة الولايات المتحدة . فكانت عملية تفريغ ليهود وسط أوروبا وتكثيف ليهود الولايات المتحدة ، كما كانت بداية عملية او جريمة زرع اسرائيل .

وهذه الجريمة الأخيرة نفسها هى دورة جديدة فى ـ ماذا نقول ـ شتات اليهود ، غير أنها اختزلت وكثفت كل تاريخ اليهود فى الاضطهاد وعكسته على عرب فلسطين الشرعيين . إنها الدورة الصهيونية التى قامت بعملية "اسقاط" على العرب لكل تجربة يهود الشتات من إبادة وطرد وخروج ابتداء من الاسر البابلى حتى ضد السامية النازية . ومع اغتصاب فلسطين ، الذى تسميه الصهيونية بالكذب وللسخرية المريرة "حرب الاستقلال" "والعودة الى أرض الميعاد"



الحى اليهودى فى عدن

(!) تشععت تيارات وموجات الهجرة نحو بؤرة واحدة وجديدة .

من بين هذه التيارات كان التيار الاوروبى هو السائد فى بداية صنع اسرائيل ، ثم تحول الى آسيا ، وبعدها الى افريقيا على الترتيب . ولما كان هذان المصدران الأخيران يقع أغلبهما فى العالم العربى ، بينما طرد عرب فلسطين الى البلاد العربية المجاورة ، فقد وصل السفه الاسرائيلى الصهيونى إلى حد الزعم الفاجر بأن العملية كلها ليست إلا عملية "تبادل سكان" ! غير أن المستقبل القريب جدير بأن يثبت أن اسرائيل لن تكون إلا مجرد مرحلة فى رحلة الشتات التاريخية ، مجرد جملة اعتراضية فى تاريخ فلسطين ، وقريب هو لاشك "الخروج" الجديد ...

طوائف ثلاث

ونستطيع الآن بعد أن انتهينا من ديناميكية اليهود عبر التاريخ أن ننظر نظرة عامة الى

صورتهم الاستاتيكية الحالية كما تتمثل فى التصنيف الاولى لفئاتهم الطائفية . ولقد رأينا التفرقة بين الاشكناز والسفاردى ، ولكن لابد أن نضيف اليهود الشرقيين Oriental Jews

هؤلاء لايقعون داخل أى من المجموعتين الاوليين ، وإنما يمثلون مجموعة قائمة بذاتها استمدت أصولها القديمة من فلسطين رأسا أو من مراكز يهودية ثانوية . وهم اذا كانوا - نظريا - الأقرب الى الأصول الفلسطينية ، فانهم الأقل عددا والأدنى مرتبة فى الهيراركية اليهودية ، فكل من الأشكناز والسفارديم ينظر اليهم نظرة احتقار وازدراء بلا مواربة .

أما توزيعا ، فان الأشكناز يشملون اليوم يهود غرب ووسط وشرق أوروبا ، بالاضافة الى خلاياهم الجديدة التى انشطرت فى العالم الجديد بقارتيه ، ثم جنوب افريقيا واستراليا ، ويشمل السفاردى يهود البلقان والشرق الأدنى ، كما يشمل مستعمرات وجاليات مبعثرة على شواطىء البحر المتوسط الشمالية والجنوبيه ، بالاضافة أخيرا

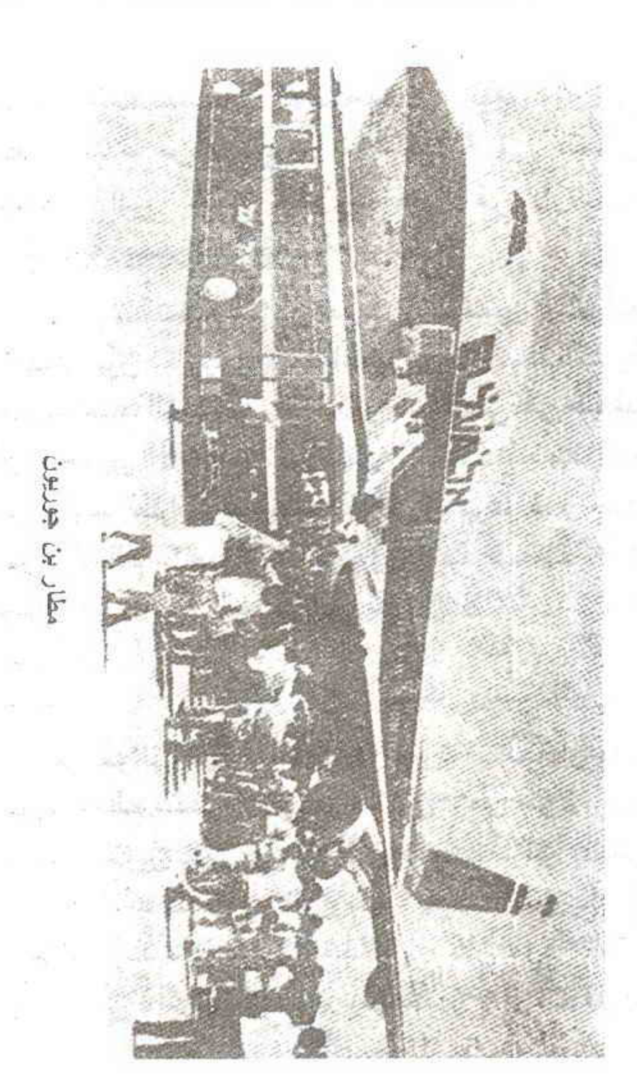
الى امتداداتهم الحديثة ، والمحدودة فى العالم الجديد شماله والجنوب . أما اليهود الشرقيون فاليهم تنتمى مستعمرات فى شمال افريقيا وفلسطين ، ثم مستعمراتهم فى العراق واليمن ، ثم القوقاز وايران والتركستان الروسية ، وكذلك الهند والصين .

وبعض هذه التوزيعات يستحق شيئا من التفصيل . ففى القوقاز تنتشر شظايا اليهود الشرقيين تحت أسماء مختلفة : فثمة يهود الجبال فى داغستان من بقايا الخزر القدامى والذين يعيشون فى ثنايا الشعب اللزجى Lesghians ويتكلمون لهجة فارسية ، وثمة يهود جورجيا فى تفليس خاصة ، ثم يتمم الصورة الفسيفسائية يهود الشماخة Shemakha فى أذربيجان. أما فى فلسطين ، فاذا كان اليهود المحليون قبل الاغتصاب هم من الشرقيين ، فقد جمعت الصهيونية بالهجرة بين المجموعات الرئيسية الثلاث بنسبة النصف من الأشكناز والنصف من السفارديم والشرقيين .

توزيع اليهود فى العالم

اكتملت لنا الآن فيما نأمل صورة هيكل التاريخ اليهودى على نحو ما ، وآن لنا أن نضع التوزيع الراهن لليهودية العالمية Judenthum تحت المجهر وذلك قبل أن نتقدم لندرس انثروبُولوجية اليهود جنسيا ، فان لتوزيع اليهود فى ذاته - واليهود بالذات - قيمة ودلالة انثروبولوجية حاسمة كما سنرى . ولعل من الواضح الآن أن الذبذبة العنيفة مابين نمو وتناقص هى ملمح أساسى جدا فى كيان اليهودية العالمية ، شأنها تماما شأن السيولة الجغرافية النادرة المثال فى توزيعها المكانى .

إنها إذن ذبذبة مزدوجة فى الزمان والمكان ، بل لعلهما هنا جانبان لشىء واحد . إلا أن الذبذبة العنيفة فى الزمان تجعل نمو اليهود فى نهاية المطاف وعلى المدى الطويل أقرب الى الجمود والتوقف النسبى . فكلما نموا بالزيادة الطبيعية



مطار بن جوريون

سرعان ماتحصدهم الاضطهادات فيعودون الى نقطة البدء من جديد . أما الذبذبة فى المكان فتنتهى الى تغيير جذرى ومثير فى أوطانهم الاقليمية بصورة انقلابية تماما .

ونحن نستطيع هنا أن نعرض "لقطتين" لتوزيع اليهود بين تاريخين متباعدين بما فيه الكفاية لندرك هذه الذبذبات الانقلابية . الأولى فى العقد أو العقدين الأخيرين من القرن الماضى ، والثانية فى يومنا هذا ، فحولنا ١٨٨٠ وبعدها قدر عدد يهود العالم بنحو ٦٫٥ مليون نسمة ، منهم ٥٫٥ مليون فى أوروبا وحدها بنسبة ٨٤٫٥ ٪ ، ٤٢ الفا فى افريقيا بنسبة ٦٫٥ ٪ ، ٢٥٠ الفا فى آسيا بنسبة ٤ ٪ ، والبقية فى أمريكا واستراليا .

أما حوالى نهاية القرن أو دورته فقد قدر عدد يهود العالم بنحو ٨ الى ٩ ملايين . من هؤلاء كان ٦ ـ ٧ ملايين يتوزعون فى أوروبا وحدها أى بنسبة ٨٠ ٪ . وهناك فى أوروبا ، حيث التوزيع أو الكثافة أبعد شىء عن التجانس ، كان مركز الثقل يتحدد فى دائرتين يفصل بينهما برزخ أو انخفاض

عميق : دائرة فى الشرق وأخرى فى الغرب . فالأولى دائرة الأساس ، وهى بالفعل دائرية شكلا ، تغطى جنوب غرب الروسيا وجنوب دويلات البلطيق وكل بولندة (والأخيرتان كانتا تابعتين للروسيا سياسيا) ثم أقصى شرق المانيا حيث اشتد طفح يهود بولندة بدرجة خطيرة أثارت صيحة ضد السامية ، ثم أخيرا امبراطورية النمسا ـ المجر شمال الدانوب . وحدود الدائرة شرقا فى الروسيا قاطعة حادة بحكم القانون الذى قصر اقامة اليهود على مناطق معينة ، وترسم قوسا من القوقاز الى البلطيق .

اما فى مجموعها فتزن الدائرة اكثر من ٦ ملايين يهودى : إنها ببساطة قطب اليهودية فى العالم . وثقلها الطاغى هذا وحده يجعلنا نفترض لها اكثر من مصدر تاريخى ، فليس من المعقول أن نفترض أنها استمدت كل جسمها من الدائرة الصغرى وحدها الى الغرب ، بل لابد كذلك أن نفترض المصدر الشرقى عن طريق القوقاز ، الى جانب التحول الدينى المحلى . من هذه الدائرة

يحتل جنوب غرب الروسيا القلب المطلق ، فكان فى الروسيا نحو ٤ ـ ٥ ملايين اى نصف يهود العالم . ولكننا حين نقول الروسيا فإنما نقصد معها الجزء الأكبر من بولندة الذى ضم إليها فى التقسيم السياسى "Polognerusse" والذى كان هو النواة النووية الحقة فى كل دائرة اليهود الشرقية . بل يذكر البعض أن يهود بولندة وحدها كانوا يؤلفون نصف يهود العالم . أما بقية التوزيع فكانت النمسا ـ المجر تلى بنحو مليونين ، ثم رومانيا بحوالى ٦٠٠ ـ ٧٠٠ الف .

أما عن الدائرة الثانية فى الغرب فهى أصغر بكثير ، تنتشر فى حوض الراين بعامة وفرانكونيا والألزاس واللورين وهولندا بخاصة ، وتستقطب جميعا حول مدينة فرانكفورت . فكان بكل المانيا نحو ٦٠٠ ـ ٧٠٠ الف ، الجزء الاكبر منهم فى حدود هذه الدائرة . وكان بهولندا ١٠٠ ألف ، وبفرنسا ٨٠ ألفا . أما خارج هاتين الدائرتين فتقل أعداد وكثافات اليهود كثيرا أو كثيرا جدا : بريطانيا ١٠٠ ألف أغلبهم فى لندن ، إيطاليا ٥٠

الفا ، أما اسكندناوة فكان اليهود ممنوعين حتى منتصف القرن تقريبا ، وفى اسبانيا لم يكن ثمة يهودى على الاطلاق منذ "الاسترداد" أما خارج اوروبا فكان المقدر أن يهود الولايات المتحدة لايزيدون حينذاك رغم بداية تدفق الهجرة من الروسيا ـ لايزيدون عن نصف المليون مبعثرين فى مدنها الكبرى ، منهم ربع مليون فى نيويورك .

وفى ١٩٠٥ قدر عدد يهود العالم بأكثر من ١١ مليونا ، نصفهم فى الروسيا ورومانيا ، وثلثهم فى المانيا والنمسا ، والسدس فى بقية العالم . ولكن اثر الهجرة الى العالم الجديد كان قد بدأ ، فان اغلب هذا السدس الأخير أو نحو ١٣ ٪ من مجموع اليهود كان يحتشد فى الولايات المتحدة وحدها .

ماذا تعنى هذه الارقام وتلك التوزيعات ؟ مهما يكن من امر ، وبغض النظر عن التطورات الطفيفة فى التوزيع بين تلك التواريخ المتقاربة ، فإن ملامح الصورة العامة واضحة ، فأوروبا هى عمليا

الوطن المطلق لليهودية العالمية ، ومايوجد خارجها ليس بالمقارنة إلا شظايا . وعلى مستوى النظرة الكلية يمكن ان نتصور ثلاث دوائر هى اقطاب

التوزيع حتى نهاية القرن الماضى ، تقع على عروض متقاربة ولكنها تتضاءل بسرعة وبشدة اقطارا واحجاما من الشرق الى الغرب : دائرة شرق أوروبا ومركزها بولندة الروسية ، ودائرة غرب أوروبا ومركزها الراين وفرانكفورت ، وأخيرا دائرة الولايات المتحدة ومركزها نيويورك .

لننظر الآن الى توزيع اليهود المعاصر لنرى الانقلاب المطلق ، فقط لنذكر أولا أن الصورة فى أوروبا قبل النازية والحرب الثانية كانت تختلف كثيرا فى أساسياتها عن صورة نهاية القرن ، وفى نفس الوقت كانت تتشابه . تتشابه من حيث أنها تمثل تكثيفا تراكميا لتلك الصورة بحكم التزايد الطبيعى ، وتختلف فى أنها بدأت تعكس نتائج وآثار الهجرة الى العالم الجديد بصورة حاسمة . إنها باختصار تمثل مرحلة الانتقال من نمط

منتصف القرن التاسع عشر الى نمط منتصف القرن العشرين .

ففى عام ١٩٣٩ قدر يهود العالم بنحو ١٥ مليونا ، (ولعل هذه أعلى قمة سجلتها ديموغرافية اليهود فى تاريخهم ، فبعدها جاءت ابادة النازية التى - وإن رفضنا مبالغات وتهويل الدعايات الصهيونية - حصدت منهم لاشك عددا كبيرا) . اما عن التوزيع ، فالمقدر انه كان بأوروبا ١٠ ملايين اى الثلثان ، منهم ٣ ملايين فى الاتحاد السوفييتى ، ٣ ملايين فى دول شرق أوروبا الجديدة وهى دويلات البلطيق وبولندة ، أما أمريكا فكان نصيبها ٤ر٥ من المليون ، وآسيا ثلاثة ارباع المليون .

اما عام - ١٩٦٦ - وبعد أن عاد اليهود إلى النمو الطبيعى منذ نهاية الحرب ، فإن عددهم يقدر رسميا بنحو ١٣ر٤ من المليون . والرقم - قبل أن ندخل إلى تحليل جزئياته - جدير بوقفة تأمل ، فإن له أكثر من مغزى . فأولا ، اذا تذكرنا عدد اليهود

فى القرن الخامس الميلادى (٤ ـ ٧ ملايين) فان معناه أن اليهود فى ١٥٠٠ سنة لم يتضاعفوا إلا مرة واحدة أو اثنتين أو ثلاث ، بينما كانوا قد ضاعفوا انفسهم فى القرون الخمسة السابقة بمعدلات خيالية ! ولا تفسير لهذا إلا ميكانيكية النمو والتناقص بالتناوب ، أو ميكانيكية شد الحبل المزمنة بين قوى النمو الطبيعى وقوى الاضطهاد والابادة . ثانيا ، وفى الاطار الكوكبى ، يبدو اليهود على الفور شيئا ضئيلا بالغا حد القزمية فى ديموغرافية العالم : ١٣ر٤ من المليون من اكثر ٣٣٠٠ مليون ، أو ٣ ـ ٤ فى الالف من سكان العالم ، وتبدو اليهودية بسهولة قوقعة دينية حفرية ضامرة .

والواقع أن اليهودية ، وحدها من بين الاديان السماوية ، هى التى تشترك مع كثير من الديانات غير السماوية ، فى أنها ديانة "مقفلة او مغلقة" اى تحجم عن التبشير وتجتر نفسها أبدا . واذا كان البعض يصنف الديانات المقفلة هذه الى نوعين : ديانات "جغرافية" وديانات "عنصرية" ـ

يعنى على الترتيب ديانات محلية التوزيع قاصرة على وطن أو بيئة محدودة ، أو مرتبطة بقوم أو عنصر بعينه ـ فإن اليهود يمثلون شذوذا يكاد يصل إلى حد المتناقضة الفذة .

فهم قد بدأوا ديانة جغرافية وعنصرية معا ، وبصرامة قاطعة ذلك ، ولكن منذ الشتات انتشروا أيدى سبأ فى أرجاء العالم لتصبح اليهودية عالمية او شبه عالمية بمجرد توزيعها ، وإن كانت أبعد شىء عن العالمية بحجمها القزمى الضئيل . كذلك فقد تخلط اليهود ـ كما سنرى ـ وداخلهم بالتحول والتزاوج دماء عناصر شتى لاحصر لها ، فما عادوا عنصرا بعينه متجمدا على الديانة ، ولا الديانة عادت مرادفة لعنصر جنسى واحد . ومع ذلك فاليهود واليهودية ، بالسياسة والمذهبية ، تمثل عنصرية عاتية غاشمة تلخصها فى كلمة واحدة الصهيونية المعاصرة .

والآن كيف يبدو نمط توزيع هذه الأقلية الدينية العالمية ؟ الجدول الآتى ، الذى يدور حول أواخر

الخمسينات وكما أورده كتاب (اليهودية العالمية World Jewry لايعطى إلا ١٢ مليونا كمجموع كلى، ولذا فهو يقدم صورة رقمية قد تختلف قليلا عن صورة اليوم ، ولكنه يظل يعطى نسبا صحيحة بوجه عام .

القارة	عدد اليهود	٪
أوربا (بكل الاتحاد السوفيتى)	٣,٤٠٠,٠٠٠	٢٨,٨
أمريكا الشمالية	٥,٤٣٣,٠٠٠	٤٥,١
أمريكا الجنوبية	٦٣٣,٠٠٠	٥,٣
آسيا	١,٨٥٥,٠٠٠	١٥,٤
افريقيا	٥٨٥,٠٠٠	٤,٩
استراليا ونيوزيلند	٦١,٠٠٠	٠,٥

والحقيقة الكبرى التى يكاد يضج بها الجدول هى أن نصف يهود العالم جميعا يعيشون فى العالم الجديد ، السواد الأعظم منهم فى أمريكا الشمالية التى تعنى عمليا الولايات المتحدة بالتحديد . هذا بينما لاتضم أوروبا ، وهى التى كانت منذ نصف قرن حتى نهاية القرن الماضى

تحتكر ٨٠ ٪ من يهود العالم ، لاتضم إلا مايزيد على الربع قليلا . انقلاب كامل ، وانتقال مطلق لمركز الثقل ! وهو انتقال فى نفس الاتجاه وعلى نفس المحور التاريخى لحركة ورحلة اليهودى التائه : الى الغرب دائما .

أما آسيا وافريقيا فلا تجمعان معا الا خمس اليهودية ، وهذا أيضا شذوذ طارىء جديد لأن النسبة الكبرى منهم تتشكل من صهيونية اسرائيل الدخيلة الغاصبة ، وبغيرها لاتزيد اسيا وافريقيا على ٧ ـ ٨ ٪ من يهود العالم ، بل يهوى عدد يهود اسيا الى ١٣٦ الف فقط وتهوى نسبة آسيا الى ٥ر٢ ٪ لتصبح أقل من افريقيا وأقل القارات جميعا باستثناء استراليا .

اما داخل القارات ففى هذا الجدول انعكاس لاهم ملامحها بحسب أرقام "اليهودية العالمية" سابق الذكر ، علما بأن النسب المئوية تشير الى نسبة يهود كل دولة الى سكان تلك الدولة .

الدولة	عدد اليهود	٪
كندا	٢٣٣,٠٠٠	١,٤
الولايات المتحدة	٥,٢٠٠,٠٠٠	٣,١
الأرجنتين	٣٦٠,٠٠٠	١,٨
البرازيل	١٢٠,٠٠٠	٠,٢
أوروجواى	٥٠,٠٠٠	٢,٠٠
النمسا	١١,٨٠٠	٠,٢
بلجيكا	٣٥,٠٠٠	٠,٤
هولندا	٢٦,٠٠٠	٠,٢
تشيكوسلوفاكيا	٢٠,٠٠٠	٠,٢
بريطانيا	٤٥٠,٠٠٠	٠,٩
فرنسا	٣٥٠,٠٠٠	٠,٨
بولنده	٤٥,٠٠٠	٠,٢
المانيا	٣٠,٠٠٠	٠,٠
المجر	١١٠,٠٠٠	١,١
ايطاليا	٣٢,٠٠٠	٠,٣
رومانيا	٢٢٥,٠٠٠	١,٣
الاتحاد السوفيتى	٢,٠٠٠,٠٠٠	٠,٨
تركيا	٦٠,٠٠٠	٠,٢
المغرب	٢٠٠,٠٠٠	٢,١
الجزائر	١٣٠,٠٠٠	١,٤
تونس	٨٠,٠٠٠	٢,١
مصر	٤٠,٠٠٠	٠,٢
أثيوبيا	١٢,٠٠٠	٠,١
جنوب افريقيا	١١٠,٠٠٠	٠,٧
الهند	٢٥,٤٠٠	٠,٠
ايران	٨٠,٠٠٠	٠,٤
اسرائيل	١,٧١٩,٠٠٠	٨٩,٢
سوريا	٥,٠٠٠	٠,١
لبنان	٦,٠٠٠	٠,٤
اليمن	٣,٥٠٠	٠,١
عدن	٨٠٠	٠,١
استراليا	٥٧,٠٠٠	٠,٦

والجدول حافل بالحقائق المثيرة الجديرة بكل ملاحظة وتدبر . فأولا ، كما انتقلت الصدارة من أوروبا الى أمريكا الشمالية ، انتقلت من الروسيا (الاتحاد السوفييتى) الى الولايات المتحدة التى هى اليوم المعقل الأكبر لليهودية حيث تضم وحدها ٤٤ ٪ منها . وقد نما عدد اليهود فى الولايات المتحدة من ٠٠٠ر٠٨١ر٤ فى ١٩٢٦ الى ٠٠٠ر٦١ر٤ فى ١٩٣٦ ، ثم ظل بعد ذلك يرد لسنوات طوال متتابعة على انه ٥ ملايين بحسب

تقدير الاجهزة اليهودية . وكما يعلق بيرجل Bergel فذاك مجرد تقدير تخمينى لاشك ، واهم من ذلك انه مبالغ فيه على وجه اليقين ككل ارقام الاقليات . وأيا ماكان ، تظل كتلة الولايات المتحدة هى اضخم حشد يهودى فى العالم .

ثم ياتى الاتحاد السوفييتى كالثانى فى العالم بسدس مجموع اليهود أو حوالى ١٦ ٪ . وبهذا تكون الولايات المتحدة والاتحاد هما الدائرتين الكبريين الآن فى محيط اليهودية العالمية اللتين ورثتا دائرتى شرق اوروبا والراين فى القرن الماضى ، أو قل إن دائرة الراين الصغرى هاجرت وعبرت المحيط لتصبح هى مركز الثقل الطاغى . ويلى الاتحاد اسرائيل الصهيونية فى فلسطيننا المحتلة لتكون الثالثة فى العالم ، وهى لاتضم من يهود العالم الا ١٣ ٪ .

واذا كانت هذه هى أرقام اواخر الخمسينات ، فقد نشرت اخيرا أرقام حديثة عن تعداد اليهود فى الدول الثلاث السابقة يمكن على اساسها ان نرى تغيرا ملحوظا فى أوزانهم . فالكتاب السنوى

اليهودى الأمريكى يقدر عدد يهود العالم فى أول ١٩٦٦ بنحو ١٣ر٤ من المليون نسمة ، منهم ٥ ملايين فى الولايات المتحدة أى بنسبة ٣٧ ٪ ، ٢ر٤٨٦ر٠٠٠ فى الاتحاد السوفييتى بنسبة ١٨ ٪ ، ٢ر٢٢٩ر٠٠٠ فى اسرائيل بنسبة ١٦ ٪ وبمقارنة هذه الأرقام والنسب بأرقام أواخر الخمسينات يرجح لدينا أن بعض التغييرات هى فى الحقيقة مجرد تصحيحات لأرقام تقريبية سابقة . والمهم على اية حال أن نسبة الولايات المتحدة قد انخفضت قليلا ، بينما ارتفعت نسبة الاتحاد السوفييتى ، وارتفعت نسبة اسرائيل - لاشك بالهجرة - أكثر وأكثر .

هذا إذن عن "الثلاثة الكبار" - كما يقال - فى اليهودية العالمية . ولكن ثمة بعدها دول تتدرج من حوالى نصف المليون الى ثلث المليون الى ربع المليون ، هى على الترتيب بريطانيا نصف ثم الارجنتين وفرنسا ثلث ثم كندا ورومانيا ربع . ثم تلى بعد هذا ٥ دول يزيد عدد اليهود فى كل منها على المائة ألف ، هى على الترتيب ، المغرب

فالجزائر فالبرازيل فالمجر فجمهورية جنوب افريقيا ، مع ملاحظة أن الهجرة أخيرا من المغرب والجزائر قد هبطت بأعداد اليهود فيهما كثيرا جدا حتى خرجت بهما من هذه المجموعة .

من هذا التصنيف الحجمى لايمكن الا أن نصل الى نتيجة بالغة الاهمية إن لم تكن ثورية حقا . فاذا نحن اضفنا مجموع الثلاثة الكبار لاتضحت لنا حقيقة بالغة الخطورة وهى أن ٩ر٨ مليون يهودى من ١٢ مليونا أو نحو ٦٩ ٪ تحتشد جميعا فى ثلاث من دول العالم وذلك بحسب أرقام الخمسينات أو ٩ر٧٨٥ر٠٠٠ من ١٣ر٤٠٠ر٠٠٠ اى بنسبة ٧١ ٪ بحسب أرقام ١٩٦٦ .

كذلك اذا نحن اعتبرنا الدول الثلاث عشرة فئة + ١٠٠ ألف لوجدناها تحتكر وحدها ١١ر٢٠٧ر٠٠٠ يهودى من المجموع العالمى البالغ حينذاك ١٢ر٠٣٥ر٠٠٠ أوزهاء ٩٣ ٪ . فما معنى هذا ؟

قد يكون اليهودى عالمى التوزيع ، بمعنى أنه

لاتكاد تخلو دولة فى العالم منه ، وقد يكون توزيع اليهودية على طرف النقيض من توزيع الاسلام الجغرافى الذى ينفرد من بين الأديان بمحيط مطلق يكاد يكون متصلا بلا انقطاع ، ولكن ليس صحيحا أن "تحت كل حجر فى العالم يهوديا" ... إنما الاصح أن نقول أن توزيع اليهود العالمى توزيع رشاش متطاير فى معظمه يتحول أحيانا الى "تراب" رمزى بحت ، بينما أن ٦٩ ٪ أو ٧١ ٪ من يهود العالم يتكدسون ككتلة من "الأحجار الضخمة" فى ٣ دول ، ٩٣ ٪ فى ١٣ دولة . وبينما تتراوح نسب اليهود الى عدد السكان الكلى فى دول الجاليات الكبرى (ماعدا فلسطين المحتلة) بين ٣ ٪ كما فى الولايات المتحدة وبين ١ ٪ ، تتأرجح فى بقية دول العالم حوالى ٠ر١ ، ٠ر٢ ، ٠ر٣ ، ٠ر٤ فى الأعم الأغلب ، وكثيرا ماتكون أقرب الى الصفر .

أما اذا عدنا الى التوزيعات الاقليمية ، فسنجد الصورة أوضح مايكون ، ولكن أيضا أشد مايكون ثورية فى أوروبا ، فثمة دائرتان أو بالأحرى الآن

نواة ضخمة ونوية ثانوية . النواة فى شرق أوروبا (٣ ملايين) الاتحاد السوفييتى بمليونين وربع المليون ثم رومانيا بربع مليون ، والمجر بنصف ذلك . ومن الواضح أن هذه النواة تقلص ضامر لنواة القرن الماضى الثقيلة بعد أن خفت فى القلب وقلمت اطرافها فى بولنده وتشيكوسلوفاكيا وشرق المانيا والنمسا بفعل الهجرة والحرب وعمليات التصفية النازية . اما النوية (أقل من المليون) ففى بريطانيا وفرنسا اساسا ، وهى بهذا قد ورثت نوية الراين القديمة التى تبددت الآن تماما واصبحت المانيا مثل بولنده من اقل دول أوروبا يهودا . وخارج هاتين الدائرتين ينتشر اليهود فى شبه تجانس على نحو ما ، ببضعة آلاف أو عشرات الآلاف لا اكثر فى بقية وحدات القارة . وبهذا وذاك جميعا نرى أن توزيع اليهود وكثافتهم تقل سريعا فى أوروبا شمال الالب من الشرق الى الغرب .

وعلى العكس من هذا انحدارهم Gradient على الشاطىء الآخر من البحر المتوسط فى شمال

افريقيا ، فهم يقلون عددا ونسبة كلما اتجهنا من الغرب الى الشرق ، من المغرب الى الجزائر الى تونس الى مصر . ونطاق يهود افريقيا العربية ، الذى كان يزن قبل الخروج الاخير نحو نصف المليون ، يكاد يكون المجال اليهودى الوحيد فى القارة باستثناء الطرف الجنوبى الاقصى فى جمهورية جنوب افريقيا حيث جذبهم الاستعمار السكنى (١١٠ آلاف) . وكلا المجالين - سيلاحظ - خارج مدارى بوضوح . أما بين المدارين فقليلة جدا هى الوحدات التى تعرف اليهود قدامى أو جددا ، وقليلة هى جدا أعداد اليهود فيها على اية حال - كاثيوبيا وبعض وحدات الاستعمار الأوروبى السابق فى مثلث القارة الجنوبى .

اما فى آسيا العربية - باستثناء فلسطين المحتلة منذ قيام اسرائيل - فقد أصبح اليهود مجرد بقايا لا وزن لها فى أى مكان ، ببضعة الاف او مئات فى بعض وحدات منها وليس كلها . اما قبل ذلك فكانت أهم تجمعاتهم فى العراق (١٠٠ الف) واليمن (٧٠ الفا) بينما خلت وتخلو منهم

بقية الجزيرة العربية . واليوم تأتى إيران كأكبر جالية يهودية فى آسيا خارج العالم العربى . (٨٠ الفا) تليها الهند (٢٥ الفا) ـ أما يهود تركيا فمركزون عمليا فى اسطنبول على البر الأوروبى لا الآسيوى . وربما أتت بعد ذلك جمهوريات آسيا الوسطى السوفيتية بجالياتها اليهودية القديمة ، وجمهورية بيروبيدجان فى الشرق الأقصى السوفيتى بمستعمرتها الجديدة . وعدا هذا فبقية آسيا "خالية" من اليهود إلا من أعداد رمزية بحتة هنا وهناك .

أما فى العالم الجديد فإن اليهود يتركزون أساسا فى الشمال الشرقى ، الربع الغنى ، ثم تلى نوية ثانوية فى الغرب الأوسط وولايات الهادى . أما فى الجنوب عامة وولايات الجبال فيقلون كثيرا . وبالمثل فى أمريكا اللاتينية يتركز اليهود على السواحل الشرقية أولا ، وفى النطاق دون المدارى أو خارج المدارى ثانيا ، كما فى البرازيل والأرجنتين . ومن هذا النمط ، واذا تذكرنا معه انتقال أحد مركزى ثقل اليهود فى

أوروبا من وسطها الى غربها ، يمكننا بسهولة أن نتصور الكتلة الكبرى من اليهودية العالمية تتجاذب كما لو كانت مغناطيسيا نحو سواحل المحيط الأطلسى شرقية وغربية . فاذا ما أضفنا الى ذلك نمط التوزيع فى أمريكا الجنوبية ثم تركز يهود شمال افريقيا تقليديا فى المغرب ، لجاز لنا أن نقرر أن الأغلبية العظمى من يهود العالم تحف بشواطىء ذلك المحيط ، بعد أن كانت حتى القرن الماضى تتركز أساسا فى القلب القارى للعالم القديم .

طفيليات المدن

تلك بصورة عامة الخطوط العريضة فى توزيع اليهود على سطح الأرض . غير أننا ننسى نصف الحقيقة اذا نحن أغفلنا خاصية نادرة وشديدة الالحاح والتواتر فى التوطن اليهودى ، وأعنى بها سكنى المدن .

فاليهود بالدرجة الأولى سكان مدن ، وسكان



شلما مصر الأول

مدن كبرى بالدقة ، ثم هن الى ذلك سكان عواصم بالتفضيل والامتياز . وأنت حين تتكلم عن يهود دولة ما فانت تتكلم فى الحقيقة عن يهود العاصمة ومدينة أو اثنتين الى جوارها . وهذه حقيقة طاغية وابدية طوال تاريخ اليهود قديما كان أو حديثا ولاتتبلور كما تتبلور فى وقتنا هذا . والأمثلة تغنى عن الحصر ، ولعل أوضحها فى الذهن المثال الامريكى .

يهود نيويورك = ٢٫٥٦٠٫٠٠٠
بينما يهود اسرائيل ٢٫٣٦٤٫٠٠٠

يهود نيويورك فى ٥ ضواحى اساسا : مانهاتن ، بروكلين ، برونكس ، كوينز ، ريتشموند ، نصف مدرسى نيويورك يهود لذا المدارس تغلق السبت .

فمدينة نيويورك الكبرى تضم وحدها أكثر من مليونين ونصف مليون يهودى ، اى اكثر من نصف يهود الولايات المتحدة وما يكاد يقارب كل يهود الاتحاد السوفيتى . وهى بذلك اكبر "ارساب"

يهودى فى اى نقطة منفردة فى العالم : إنها تل ابيب الكبرى ، بل انها هى إسرائيل الكبرى . وبقية يهود الولايات موزعة بين المدن الكبرى بصرامة . وتدل الدراسات السكانية فى الولايات المتحدة على أن عدد اليهود فى المدن يتناسب تناسبا طرديا مع احجامها ، فهم اقوى ما يكون فى نيويورك تليها على الارجح شيكاغو ، بينما لا وزن لهم مثلا فى مدينة بوسطن .

هل تريد مزيدا من الأمثلة ؟ فى كندا حيث كل اليهود ٢٣٣ الفا نجد ٧٧ الفا فى تورونتو ، ٦٥ الفا فى مونتريول . فى باريس ١٧٥ الفا أى ٥٠٪ من كل يهود فرنسا البالغين ٣٥٠ الفا . فى لندن ٢٨٠ الفا من أصل مجموع ٤٥٠ الفا . مدينة تونس ٥٥ الفا بينما أن دولة تونس ٨٠ الفا . اسطنبول ٥٠ الفا فى حين ان كل يهود تركيا ٦٠ الفا . فى جمهورية جنوب افريقيا ١١٠ آلاف ، ٥٠ الفا منهم فى جوهانسبرج وحدها . وفى استراليا يتركز فى ملبورن ٢٥ الفا وفى سيدنى ٢٢ الفا من مجموع كلى قدره نحو ٥٧ الفا . وهكذا وهكذا .

حتى فى فلسطين المحتلة تحول المغتصبون الدخلاء المقتلعون الى سكان مدن : فمنذ بضع سنين كان ٧٥ر٩٪ من سكان إسرائيل يتكدسون فى المدن ، وكانت بذلك ثالثة دول العالم بعد أسكتلندا ثم انجلترا وويلز فى درجة المدنية Urbanism والمؤكد أن هذه النسبة قد زادت منذ ذلك الوقت ، ومن المؤكد كذلك أن العالم لا يعرف دولة قزمية بهذه الدرجة الصارخة المنحرفة من المدنية . ولكنها ببساطة "حثالة مدن" العالم انصبت واستقطبت فى دولة ..

والمعنى المباشر لهذا كله أن اليهود ، وقد رأينا أن توزيعهم الفعلى ليس عالميا بالصورة المطلقة المرسومة فى أذهاننا ، أبعد شىء عن التوزيع "الغطائى" الشامل وإنما هم أدنى الى التوزيع النقطى البحت . الصورة المجازية ليست نهر مجرة مرصعا عالميا بمستعمرات اليهود ، ولكنها يمكن أن تكون منثورا من النوى والنويات السديمية هنا وهناك . على أن هذا إن حدد مجالتهم الجغرافية ، فانه عادة ما يجعل منهم

اقليات مهمة أو خطرة فى بيئاتهم المدنية تلك ، بل قد يؤلفون الاغلبية فيها أحيانا كما عرفت بالفعل بعض مدن بولندا فى القرن الماضى ، مما يفسر سيطرتهم المادية والسياسية من ناحية ؛ ويضخم شعورهم بالذات من ناحية أخرى ، وبالتالى يفاقم من شدة التعصب ضدهم والاضطهاد من ناحية ثالثة ..

إلام نرد هذه الظاهرة المميزة - الى غريزة "طفيلية" استغلالية فى طريقة الحياة اليهودية ، أم الى قوى ضغط خارجية ؟ يرى البعض أن قوانين العصور الوسطى حرمت على اليهود امتلاك الأرض وفرضت عليهم حياة "الجيتو" . ولكن البعض الآخر يرى أن اليهودى مرتبط بالمال والتجارة والسمسرة والربا أبدا ، وأنه يكره العمل اليدوى الشاق أو فى الخلاء ، يكره بذل الجهد الجسمانى بعامة ، ويفضل أن يعيش بعقله لا بعضله Brain not Brawn من هنا - وليس من هناك يبتعد عن الزراعة أولا وعن الصناعة الى حد بعيد ، ولذا لا يكثر فى المناطق الزراعية أو

الصناعية ويتقاطر على العكس فى المدن حيث الاعمال الحرة والمعاملات التجارية والنشاطات المالية والمصرفية .. الخ .

والواقع أنه ليس بالعالم كله مجتمع يهودى زراعى واحد يستحق الذكر ، وباستثناء بعض خلايا معزولة فى الروسيا القيصرية وبولندا القديمة لا نعرف فى التاريخ الحديث أن اليهودى ارتبط بالزراعة . وبالمثل فى التعدين والصناعة : فمن الغريب ان الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة - على شدة تباين وتناقض مذاهبهما - لا يعرفان يهوديا واحدا من عمال المناجم بالذات ! وعلى العكس من ذلك كله التجارة والمهن الحرة ، فقديما كانت كلمة اليهودى مرادفة لكلمة "التاجر" ، وحديثا يحتشد اليهود فى الوظائف الحرة كالطب والمحاماة والتجارة والمال والصحافة حتى لنجد ، على سبيل المثال ، أن نصف مجموع الأطباء والمحامين فى ولاية نيويورك - ودورها المحورى فى الاقتصاد الامريكى تلخصه ببلاغة الكناية الساخرة

"بالولاية الامبراطورية Empire State اشارة الى ناطحة السحاب المشهورة !ـ نجد نصف هذا المجموع من اليهود .

ومن الواضح من هذا كله أن طراز حياة اليهودى هو الأعمال غير المنتجة والوظائف الطفيلية . ومن المحقق أن هذا سبب اصيل وعميق فى كراهية الامم لهم ، ولعله ـ اكثر من التعصب الدينى البحت ربما ـ المصدر الأول لاضطهادهم ومقتهم . واليهودى بهذا كله قد اصبح مركبا اقتصاديا ـ اجتماعيا شديد الوضوح حتى ليضرب به المثل وحتى اتخذ علما ونموذجا على حالات مشابهة : كذاك مثلا يطلق على الجاليات الصينية التاجرة خارج الصين "يهود جنوب شرق آسيا" ، وكذاك يوصف الهنود فى مدن ساحل افريقيا الشرقية "بيهود شرق افريقيا" ! ومهما يكن من أمر ، فان الحقيقة تظل قائمة من أن اليهود سكان مدن اساسا ، أكاد أقول "طفيليات مدن" أساسا ، وتظل لها نتائجها الاجتماعية والجسمية التى ستنعكس كما سنرى

على مشكلتهم الانثروبولوجية .

مجتمع الجيتو

لقد رأينا حتى الآن أن توزيع اليهود توزيع كوزموبوليتانى أولا ، ومتروبوليتانى ثانيا ، ولكن يبقى اخيرا أن نضيق بؤرة عدستنا اكثر واكثر لنرى الخلية النهائية والاساسية فى توزيع اليهود .. انها الجيتو Ghetto حى اليهود أو معزلهم فى المدينة ! فطوال عصور التاريخ ، وفى كل البلاد والاقاليم ، ارتبط اليهود كقاعدة بلا استثناء بالعزلة السكنية فى حى خاص من المدينة : الجيتو كما يقال له فى كثير من بلاد أوربا وامريكا ، او حارة اليهود فى المانيا Judengasse وكما نقول نحن فى مصر ، وهو اليوديريا فى أسبانيا الوسيطة، Juderia أو هو الملله Mellah كما يقال فى مدن المغرب العربى، أو القاع قاع اليهود كما فى مدن اليمن .

وكثيرا ماكانت هذه الوحدة الخلوية اليهودية تغلف بحائط خاص داخل المدينة ، واحيانا كان الحى برمته يقام خاج أسوار المدينة الأم ذاتها

أمعانا فى العزل . وفى الغالب الاعم يؤلف حى اليهود قطاعا من الأحياء الفقيرة المنحطة من المدينة ، ويكفى فى هذا الصدد أن نذكر كمجرد مثال حى ستينى وهو ايتشابل Whitechapel Stepney فى الايست اند نطاق الفقر الشهير فى شرق لندن . ومع ذلك فقد كان أغنياء اليهود يتعدون هذا الحصار ليعيشوا فى الأحياء الراقية غير اليهودية ، كما أن تطور الحياة الاجتماعية يقلل الآن كثيرا من صرامة عزلة الجيتو .

ومع ذلك وعلى الفور نفهم ان العزل السكنى Residential Segregation هو قانون اليهودى فى المدينة . وكثيرا ما يرتد هذا العزل الى قوانين الدول والشعوب التى يعيش اليهود بين ظهرانيها ، يفرضونه بالقوة على اليهود تباعدا عنهم واستعلاء عليهم كفئة من المنبوذين أو البارياه + شفشا كما يعبر ماكس فيبر ، وكذلك احكاما للرقابة عليهم وحصرا لاخطارهم . ولكن كثيرا ايضا ما يرجع هذا الى صنع اليهود انفسهم ، سعيا منهم كأقلية مسحوقة الى التركز والاحتشاد فى نقطة واحدة ضمانا للحماية فى حظيرة واحدة . لقد بدأ اليهود

رحلا فى عصر التوراة ، وظلوا رحلا فى عالم الشتات ، وككل قطعان الرحل أبوا إلا أن يعيشوا فى حظائر مسورة داخل مدن الشتات ..

الأصل الجنسى لليهود

حتى الآن لم نعرض إلا لتاريخ اليهود عبر الزمان ولتوزيعهم فى المكان ، دون ان نتعرض للجانب الانثروبولوجى البحت أصلا وجنسا . وقد آن لنا أن نسائل انفسنا : من هم اليهود وأين يقعون فى العائلة البشرية ؟ ما العلاقة بين يهود التوراة ويهود اليوم ، والى أى مدى ينتسب يهود القرن العشرين بعد الميلاد الى بنى إسرائيل القرن العشرين قبل الميلاد ؟ وثمة علامات استفهام أخرى تنبع بالضرورة من تلك : هل ثمة من نقاوة جنسية يمتاز بها اليهود ؟ ما مدى الصحة فى القول بأنهم والعرب "أبناء عمومة" ؟ على هذه الأسئلة يتوقف كثير من المزاعم والادعاءات السياسية ، وعلى اجاباتها يتوقف الرد عليها وتفنيدها .

والواقع اننا ينبغى أن نلتفت بوعى الى أن هناك علاقة حتمية بين الدراسة الانثروبولوجية الصرفة وبين الجانب السياسى كما يتمثل فى الأطماع السياسية ، كما ينبغى أن ندرك أن الصهيونية السياسية تسخر الأبحاث الانثروبولوجية وترتب نتائجها مسبقا بحيث تخدم دعاواهم الاستعمارية فى فلسطين ، وصميم القضية انهم ، إذ يبحثون عن مبرر من الجنس للعودة الى "ارض الميعاد" يشرع اغتصابهم لفلسطيننا العربية ، يركزون بؤرتهم على "النقاوة الجنسية" لليهود ، بمعنى انهم بعد أن يخرجوا ببنى إسرائيل من فلسطين الى الشتات يلحون فى انهم ظلوا نقاة بمنأى عن الاختلاط الدموى مع الشعوب التى انتشروا بينها (الجوبيم كما يسميهم اليهود ، أو الجنتيل Gentilles كما يسمون هم أنفسهم ، أو «الأمم» كما نقول نحن العرب) ، وأن يهود اليوم اينما كانوا هم بذلك النسل المباشر لبنى إسرائيل التوراة ، ومن ثم فهم فى أن واحد مجموعة جنسية واحدة ، وقومية تاريخية واحدة ، مثلما هم طائفة دينية

واحدة . ومن ذلك جميعا يخلصون ، لا الى تدعيم أسطورة "الشعب المختار" ، الشعب النقى الخالص فحسب ، وإنما كذلك وفى الدرجة الأولى الى تدعيم حق العودة المزعوم واغتصاب فلسطين .

بهذا تصبح قضية النقاوة الجنسية قضية محورية فى المناقشة بالضرورة . والحقيقة أن فكرة النقاوة هذه منتشرة وشائعة الى حد غير عادى ، لا فى التقاليد الدارجة عند رجل الشارع الأوروبى فحسب ، ولكن حتى بين بعض من علماء الاجناس ايضا ـ لاشك لاعتمادهم على كتابات اليهود انفسهم عن انفسهم ، وهى الكتابات التى تبدأ من فكرة قبلية مسبقة موجهة الى أهداف بعيدة غير موضوعية . ولكن هناك ـ لحسن حظ العلم ـ من وقف طويلا عند المشكلة باستقلال وموضوعية ، وأثبت أن دعوة النقاوة أبعد شىء عن الحقيقة والواقع .

وبهذا نكون ازاء مدرستين أو اتجاهين : اتجاه يرى اليهود متميزين مختلفين فى صفاتهم

الجنسية عن السكان المحيطين مهما وأنى كانوا ، وبالتالى يؤلفون عبر العالم وحدة جنسية أو نمطا اثنولوجيا متفردا بارز الوضوح . واتجاه آخر يراهم صورة مقربة من السكان المحيطين فى كل مكان وانعكاسا لتركيبهم وتكوينهم الجنسى ، ومن ثم لا يؤلفون الا وحدة دينية لا جنسية أو جينية . وبين الأنثربولوجيين، يمكن أن نتخذ كون Coon رمزا بدرجة أو بأخرى للاتجاه الأول، بينما يقف ربلى Ripley علما على الاتجاه الثانى.

ونحن هنا سندير مناقشتنا بالفعل حول هذه الفكرة الفاشية فكرة النقاوة ، فنبدأ أولا باعادة تركيب الصورة والأصل الجنسى ليهود التوراة فى فلسطين كنمط اثنولوجى محدد ، ثم نتتبع الصفات والملامح التشريحية والجسمية لليهود فى المهجر والشتات لنرى الى أى حد تتفق مع ذلك النمط الأبوى الأصلى القديم . وفى هذا المجال سنحاول أن نعزل أولا تلك الصفات والملامح التى تتكيف بالبيئة طبيعية او اجتماعية بحسبانها عناصر مكتسبة لا تكشف أصلا او عرقا ، فلا يبقى بعدها

فى البؤرة الا الصفات الوراثية الدفينة الحقة التى يمكن لها وحدها أن تقرر وتحدد مسافة الخلف أو القرب بين يهود التوراة ويهود اليوم ، ومن ثم مدى النقاوة فالاستمرارية الجنسية بينهما . وبذلك كله نستطيع أن نحدد موقفنا من النظريتين الأساسيتين نظرية النقاوة ونظرية الاختلاط .

الاجماع بين الانثروبولوجيين كامل على أن يهود عصر التوراة فى فلسطين هم مجموعة سامية من سلالة البحر المتوسط بصفاتها التى نعرف ونرى اليوم من سمرة فى الشعر وتوسط فى القامة وطول الى توسط فى الرأس وقد اختلط يهود بنى إسرائيل فى فلسطين مع الجماعات الأخرى السابقة لها واللاحقة بها من كنعانيين وعموريين وفلسطينيين ، وتمثلوا كثيرا من دمائهم وابتلعوا أعدادا منهم حتى أصبحوا هم أنفسهم مجموعة مركبة عبرية بعامة ، ولكن تلك الجماعات نفسها لم تكن لتخرج عن نفس السلالة الجنسية القاعدية المتوسطية ، ومن ثم لم يغير الاختلاط معها النمط الأساسى لليهود فى قليل أو كثير .

والأدلة المباشرة لدينا محدودة ولكنها مقنعة . فثمة قليل من الجماجم عثر عليها فى فلسطين وخارجها تعود الى عصر سليمان وبعده ، وتشير الى سلالة البحر المتوسط مع قلة نادرة من حالات عرض الرأس . واهم من ذلك رسوم وتماثيل قدماء المصريين والبابليين التى تحدد كل الجماعات والعناصر التى ذكرنا ومن بينها يهود فلسطين الاوائل التى لا تختلف عن ملامح العموريين والساميين . فبينما يبدو الفلسطينيون كالاوروبيين من سلالة البحر المتوسط ببشرة فاتحة اللون ، يبدو العموريون طوال الوجوه ، ببشرة مصفرة وانوف محدبة ، ويبدو الساميون ـ الذين يشملون لاشك نعانيين ـ بجباه مائلة وانوف مبالغ فيها كأنوف العرب والعراقيين اليوم . وعلى هذا يمكن القول أن يهود فلسطين أيام داود كانوا سمرا من سلالة البحر المتوسط ، على عدة انماط ، واحد منها على الأقل طويل الوجه اقنى الأنف . وإذا اضفنا دلالة التوراة فيمكن أن نردف قصر القامة ، ففى التوراة يصف سفر الاعداد الإسرائيليين

بالمقارنة إلى العموريين أبناء أناك بأنهم "as grasshoppers in their own sight"

ويعنينا هنا أن نقف قليلا عند عنصرين بعينهما وهم العموريون والحيثيون . فثمة نظرية قديمة كانت ترى فى العموريين (الشعب الأحمر) عرقا "نورديا" اشقر ، وكانت ترد ما فى يهود اليوم من شقرة اليهم . ويبدو أن اصل هذه النظرية يرقى إلى مؤرخ الشرق القديم سايس Sayee وثمة نظرية قديمة كذلك كانت تعد الحيثيين من الأرمينيين Armenoids عراض الرءوس، واليهم كانت ترجع عامل عرض الرأس وتحدب الأنف فى يهود اليوم، ولعل أول من روج لهذه النظرية هو ينسن .Jensen

وهاتان النظريتان : اللتان كان هادون من انصارهما ، يمكن الترتيب على أساسهما للزعم بأن اليهود يبداون فى موطنهم الاول وهم مختلطون ويمثلون اكثر من نوع أو نمط جنسى محليا ، وبالتالى يمكن على أساسهما تفسير اختلافات الصفات الجنسية ليهود اليوم داخل حدود نظرية

النقاوة الجنسية . غير أن كون يثبت خطأ النظريتين نهائيا فلم يكن العموريون شقرا أو حمرا بل صفرا ، ولا كان الحثيون أرمينيين بصورة ما ، بل ليس هناك دليل تاريخى على اختلاط مهم لليهود بهم .

لنحاول الآن أن نبحث عن يهود معاصرين يمكن اعتبارهم بغير شكوك استمرارا نقيا لبنى إسرائيل عصر التوراة حتى نقارن بين الطرفين . ليس بالعالم اليوم مجتمع يهودى واحد أفلت من الاختلاط البيولوجى مع غيره من المجتمعات اليهودية منذ أولى مراحل نشأتها . ولهذا السبب لسنا نستطيع أن نعر ، أن أى جماعة من اليهود الشرقيين أو غير الشرقيين تمثل تمثيلا صادقا يهود فلسطين أيام المسيح . ولكن لعل السامريين هم المجموعة الوحيدة من اليهود التى يتفق الجميع على أنها ظلت فى فلسطين كطوال التاريخ حتى يومنا هذا فى عزلة كاملة وتزاوج داخلى ضيق وفى نقاوة لاشك فيها ، وأنهم أكثر من أى مجموعة أخرى يمثلون العرق اليهودى الفلسطينى

الاصلى القديم ..

هم فى قرية من قرى نابلس يقيمون ، وعددهم اليوم لا يعدو المائة او المائتين ، أى أنهم يتجهون من قديم نحو الانقراض المحقق . هم متوسطو الرءوس الوجه طويل ضيق ، ولكن القامة أطول من المألوف المعروف عن اليهود ، كما يبدون نسبة من اللون الفاتح أكبر من المعهود فى سلالة البحر المتوسط ، ولو أن السمرة تظل سائدة . وبالنسبة ليهود فلسطين بعامة فى أوائل هذا القرن - أى قبل هجرة الصهيونية - فالقامة قصيرة ، والرأس متوسط والوجه ضيق كثيرا ، والأنف الأقنى يسود بين نحو ٨٠٪ من العينة المدروسة . أما الشقرة فلا وجود لها .

صفات اليهود الجسمية

لعل الصورة الجسمية لليهودى القديم ، يهودى فلسطين قبل المسيح ، قد اتضحت معالمها العامة لنا الآن . ونستطيع إذن أن ننطلق فى جولتنا حول



طفلان يهوديان

العالم لنقارن اليها صفات يهود اليوم . ولنبدأ ببعض الصفات والملامح الاكثر شيوعا فى التصور الدارج عن اليهود ، ولكن الاقل مغزى فى الدلالة الانثروبولوجية ، لنبدأ بالقامة وما يتصل بها من محيط الصدر ، ثم بملامح الوجه عامة والانف خاصة .

من الشائع جدا عن اليهودى انه قصير القامة ، إن لم يكن حقا كالقزم أحيانا . وهذا صحيح علميا ـ أو بالدقة كان ـ الى حد كبير . فالدراسات المترية تظهره فى أغلب الحالات فى كل الدنيا اقصر من غير اليهود بضع بوصات تزيد او تقل فقط بحسب طول القامة السائد حوله . وفى المتوسط لا تتعدى تلك القامة عند اليهودى الناضج قامة صبى فى السادسة عشرة من الجنتيل الامريكى . وحيث ترتفع نسبة اليهود عدديا ـ كما كانت الحال فى بولنده فى القرن الماضى ـ يخفضون بوجودهم من مستوى أو متوسط القامة العام بنسبة وجودهم وبنسبة طول الجنتيل . ولا تكاد تعرف الانثروبولوجيا استثناء

لهذه القاعدة الا حالات نادرة : ففى يهود التركستان تتساوى القامة مع السكان المحيطين من التاجيك . وفى أوديسا وريجا وجد اليهود أطول من المسيحيين ، وفى تونس وجدوا أطول من العرب ، وقد رأينا منذ قليل أن السامريين ليسوا أطول من جيرانهم الفلسطينيين فحسب ولكنهم يعدون طوال القامة على أى مستوى .

هل يمكن أن يعد قصر القامة اذن صفة جنسية أصيلة من المركب اليهودى ؟ كلا على الأرجح ، رغم ذلك ورغم اشارة التوراة الى الظاهرة . فمن ناحية لا يمكن أن نتكلم عن وحدة النمط اليهودى من حيث القامة ، لأنه برغم سيادة القصر فان هناك تفاوتا محسوسا بين مجتمعات اليهود المختلفة ، وكذلك يتراوح أشكناز أوروبا فيما بينهم كثيرا . ومن ناحية أخرى فالثابت الآن علميا بلا مراء أن القامة صفة جسمية مرنة مطاطة تتكيف بالبيئة الطبيعية والاجتماعية ، بالصحة والتغذية ، وأنها صفة مكتسبة وظاهرة اجتماعية مثلما هى ، أو اكثر مما هى ، وراثية جامدة .

وأغلب الظن أن قصر قامة اليهود هو وليد الجيتو وحياة التوتر والخوف من الاضطهاد . كما أن من المعتقد أن تفشى عادة الزواج المبكر جدا بين اليهود حتى وقت قريب كانت مسئولة عن نوع من الانحطاط الجسمى انعكس على القامة . أما حين وحيث تزول هذه الظروف البيئية فان قامة اليهودى تنطلق لتقترب من قامة الجنتيل كما فى حى الوست اند الراقى بلندن وكما حدث حديثا فى الولايات المتحدة . ومن قبل كان اليهود أطول قامة فى أوكرانيا الخصبة منهم فى ليتوانيا الفقيرة المجدبة .

عدا القامة الضئيلة ، يوصف اليهودى عادة بضيق الصدر . والأدلة العلمية تؤكد مرة أخرى الفكرة الدارجة فتجد محيط الصدر أقل كثيرا من المتوسط العام عند الجنتيل ، وسعة الرئتين ضئيلة والقفص الصدرى مسحوبا مسطحا . والقياسات من مختلف أجزاء العالم لا تختلف فى هذا الصدد . ولكن مرة أخرى نعود فنجد أن هذه نتيجة طبيعية لنمط الحياة وللبيئة الى جانب

الحرفة . فالحرف الداخلية التى فرضها الجيتو على اليهود ، لاسيما الحرف اليهودية التقليدية منها كالخياطة والصياغة وصناعة الاحذية .. الخ ، ترتبط وثيقا بتلك الظاهرة . ولذا فانها ـ كالقامة ـ لا يمكن ان تكون صفة جنسية أصيلة ولا دليلا قاطعا له وزنه فى تحديد الاصول الوراثية لليهود . وفى الولايات المتحدة حيث تحسنت بيئة اليهود جدا تختفى الظاهرة تماما .

وننتقل بعد هذا الى جانب يبدو على السطح اكثر خطورة ومغزى ، ولعله اكثر ما يقال عن اليهود شيوعا عند الرجل العادى ، وأعنى به ملامح الوجه اولا والنظرة العامة أو "السحنة" ثانيا . فالشائع الدارج ان اليهودى يتصف تقليديا بالسمرة (والمقصود هنا سمرة الشعر والعين لا البشرة ، اى برونت) ، ثم بالانف الاقنى الضخم ، والعيون المنتفخة ، والشفاة الممتلئة . اما عن النظرة العامة فالمقول الشائع والمتداول هو أن هناك "نظرة يهودية" أو "سحنة يهودية" بطريقة ما تميز اليهودى لاول وهلة ويعرفها هو

جيدا عن نفسه كما يعرفها الجنتيل . فما مدى صحة هذه الافكار الدارجة ، وما قيمتها فى تحديد نقاوة واصل اليهود ؟

اما ان اليهودى أسمر الشعر والعين ، فحقيقة تؤكدها الدراسة العلمية ، ولكن لا كقاعدة عامة مطلقة وإنما كاتجاه سائد . وفى أجزاء كثيرة من اوروبا وجد أن نسبة السمر بين اليهود تصل احيانا الى ثلثى العينة المدروسة ، وأن هذه النسبة تعادل ضعفى مثيلتها بين الجنتيل . (ونسبة السمرة دائما أعلى ـ بالمناسبة ـ بين اليهوديات منها بين اليهود) . ومع ذلك ففى مناطق معينة من بولندا وجد أن نحوا من ثلث الى خمسى اليهود ذوو شعر فاتح . كذلك فمن الثابت أن هناك عنصرا أوضح من الشقرة بين اليهود الشرقيين ، يجنح بهم الى اللون الأصهب Rufous وحتى بين السفارديم هناك كثير من الشقر . وتبدو الشقرة واضحة كذلك فى يهود الالزاس واللورين ، وأوضح فى يهود انجلترا .

نصل من هذا الى أن سيادة السمرة بين اليهود ليست إلا نصف الحقيقة ، وربما كان أهم منها أنه ليس هناك وحدة لونية بين يهود العالم من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن تفاوت لون الشعر والبشرة بينهم مابين شقرة وسمرة إنما هو ظاهرة لا يمكن أن تفصل عن لون السكان المحيطين بدرجة أو بأخرى . فمن حيث الشعر والعين ، لا نجد فى فلسطين عامة شقرة ما (قبل إسرائيل) بينما يبدى قلة من السامريين بعض شقرة خفيفة ، وفى العراق ودائرة القوقاز تسود السمرة ، هذا بينما فى شمال افريقيا تحدث الشقرة بنسبة ٥٪ ، ترتفع الى نسبة السدس بين سفارديم سالونيك واسطنبول ، وفى القرم ٧٥٪ سمر من البرونت والباقى من لون فاتح ، ثم بين اشكناز أوروبا تهبط نسبة السمر الى ٥٥٪ وتتحدد نسبة الشقر بنحو ١٠٪ والباقى لون فاتح ، حتى إذا ما وصلنا الى يهود ليتوانيا كان ٥٥٪ من لون فاتح . فهذه إذن سلسلة تصاعدية يبدى لون اليهود فيها معامل ارتباط وثيق مع لون السكان المحيطين السائد .

ويرى كون أن أشكناز أوروبا قد حققوا لانفسهم توازنا ثابتا بطريقة ما فى لون الشعر والعين : ففى البلاد التى يغلب على الجنتيل فيها الشقرة أو الشقرة على السمرة نجد اليهود أميل الى السمرة نسبيا ، وفى البلاد التى تسود السمرة فيها بين الجنتيل مثل رومانيا فان اليهود تميل الى أن تكون أكثر شقرة . وسواء اتفق هذا الرأى مع معامل الارتباط الواضح فى السلسلة السابقة أو تعارض معه ، فالشىء المؤكد أن اليهود ليسوا متجانسين لونا .

أما عن لون البشرة نفسها ، فالفروق بين اليهود ليست أقل حدة ، وليس ثمة نمط موحد البتة . فهم بين سفارديم البحر المتوسط والشرقيين بيض مشربون بسمرة خفيفة بعامة . وهم كذلك فى التركستان حيث يشبهون فى لونهم لون جيرانهم تاجيك الجبال مثلما يشبهونهم فى غزارة شعر الجسم . أما فى اليمن فهم أن بدوا أفتح قليلا من اليمنيين فما ذاك إلا لحياتهم فى الظل بعيدا عن العمل فى الخلاء . أما فى أوروبا فلا يختلف

الاشكناز عن الأوروبيين فى لون البشرة .

وعلى النقيض من هؤلاء اليهود البيض ، فثمة "اليهود السود" الذين يقعون خارج التقسيم الثلاثى لليهود الى اشكناز وسفارديم وشرقيين . من هؤلاء الفلاشة Falasha فى شمال الحبشة، وهم الى حد كبير متزنجون Negroid ويتكلمون لغة الأجاو الكوشية القديمة. ومنهم كذلك فى أفريقيا الدجاتون Daggatuns فى جنوب الصحراء الكبرى. اما فى آسيا فهناك اليهود السود من التاميل فى كوتشين بجنوب غربى الهند ، وهم يسمون هناك هكذا تمييزا لهم عن جيرانهم "اليهود البيض" الذين ينحدرون من اصل فلسطينى منذ أيام الشتات الأولى . وربما جاز لنا أن نضيف الى نماذج اليهود السود مجموعات فى أمريكا اللاتينية من الزنوج او الخلاسيين الذين اعتنقوا اليهودية او اختلطوا بيهود مهاجرين .

ننتقل الآن الى الأنف . فأما الأنف الأقنى المحدب - الذى ألصق باليهود واشاعه رسام الكاريكاتير حتى صار علما : "الأنف اليهودى" -

فليس فى الحقيقة صفة يهودية . فالملاحظات الانثروبولوجية تتثبت أولا أنه ليس منتشرا بين اليهود بدرجة خاصة أو غير عادية ، وأنه ثانيا منتشر بين غير اليهود بحرية وبلا حدود . فبين يهود بولندا لم تزد نسبة حدوثه على ٩٪ من العينات ، وهى نفس نسبة البولنديين ، ولو أن النسبة ترتفع فى غاليسيا الى ٣٠٪ . وفى مدينة نيويورك لم يعثر على الأنف "اليهودى" الا بين ١٥٪ من ذكور اليهود الراشدين . أما الشكل الاكثر حدوثا بين اليهود فهو الانف المستقيم كما فى يهود شمال افريقيا ويهود العالم العربى والسفارديم . مثلا بين يهود اليمن ٦٠٪ أنوف مستقيمة ، بل وهناك نسبة من الأنف المقعر . وبين اشكناز أوربا تسجل القياسات سيادة الانف المستقيم فى حين يقل الانف المحدب عن النصف دائما . بل أن الانف المقعر ليكثر بين يهود الروسيا حيث يكثر الشكل بين السلاف الشماليين عامة . فهناك ترجح نسبة حدوث الأنف المقعر نسبة الانف المحدب كثيرا ، بينما فى ليتوانيا

تصل نسبة الانف المقعر الى ٥٠٪ ويختفى الأنف المحدب كلية .

ومن الناحية الاخرى ، فالانف الاقنى المحدب شائع بوفرة بين غير اليهود : وجد بين ثلثى العينة فى جنوب شرق بولندا ، وهو منتشر كثيرا بين العرب والافغانيين وكثير من الاوروبيين .. الخ . ونحن أقرب الى الصحة ـ فيما يرى كون ـ حيث نصف الأنف الاقنى "بالانف السامى" منا إذ نصفه "بالانف اليهودى" ، ولو ان هادون يرى عكس هذا تماما حيث يقول أن تسمية الانف اليهودى بالسامى خطأ شائع وانه فى الحقيقة من اصل ارمينى .

وايا ما كان ، فالذى يميز الانف اليهودى حقا إنما هو تشكل أو تشوه خاص يشمل انخفاض أو تدلى طرف الانف مع ارتفاع جناحى المنخرين حتى ليبدوان معلقين على الوجنتين ، مما يؤدى بالتالى الى ظهور قصبة الانف مرئية بوضوح . والظاهرة ككل يمكن أن تسمى "بالمنخره Nostrility" وتقرب بروفيل الانف كثيراً من رقم ٦

الافرنجى مد ذيله . وهذا قد يعطى شعورا بتحدب الانف فى حين أنه مستقيم فى الواقع . ولكن يبقى بعد ذلك كله أن هذا النمط لا يوجد لدى كل اليهود او حتى أغلبهم . وفى النتيجة فان من المستحيل أن نتكلم عن نمط أو شكل يهودى بعينه من الانف ، ولا يعرف اليهود وحدة أنفية أكثر مما يعرفون الوحدة اللونية .

تبقى العيون . الحاجبان ، اللذان يبدوان ثقيلين لسوادهما ، أميل عادة الى أن يقتربا بعضهما من بعض . أما العيون فبينما نجد عيونا شريطية غائرة بين اليهود العرب ، تسود بين اشكنازيم أوروبا العيون "المائية" الضخمة البارزة والجفون المنتفخة الثقيلة التى ـ كما يعبر ريلى ـ تعطى شعورا أما بالحزن أو النظرة الحالمة وأما بالخبث المكتوم . على أن المهم أن ليس هناك عيون خاصة باليهود وبالمثل فان ما يقال عن امتلاء الشفاه مع بروز الشفة السفلى مدلاة إن لم تكن مقلوبة حقا ، ليس شائعا أو شرطيا بين اليهود .

يبقى الآن ما يقال عن "سحنة يهودية" بعينها يمكن بها التعرف على اليهودى . قد لا يمكن إنكار وجود مثل هذه السحنة أحيانا ، ولكن المحقق علميا أنها لا توجد عند كل اليهود ، فهى إن كانت موجودة بين بعض الاشكناز فى أوروبا فانها لا تكاد تعرف فى اشكناز أمريكا ، كما انها ليست غير معروفة تماما بين غير اليهود . ومن ثم فهى كثيرا ما تخدع الرائى فى التشخيص فيأخذ غير اليهود على أنه يهودى واليهودى على انه غير يهودى . وإذا كانت هذه النظرة أو المسحة تتركز بطريقة ما حول العينين والأنف والفم ، فان من الصعب تحديدها وقياسها .

ولكن الاهم من ذلك كله أن سحنة الوجه هذه ليست صفة جسمانية بقدر ماهى تعبير اجتماعى مكتسب من البيئة الاجتماعية ، من صنع الجيتو وحياة التشرد والاضطهاد والصراع ضد الاخطار المستمرة حتى لقد اسماها البعض "تعبير الجيتو" . إنها باختصار من فعل الانتخاب الاصطناعى لا الوراثة والبيولوجيا ، تثبتت عن

طريق التزاوج الداخلى والانتخاب الجنسى والانتخاب الاجتماعى والمهنى . ومعنى هذا إننا إذا صادفنا هذه المسحة اليهودية فى الوجه فإنما هى مجرد إرث الاضطهاد الدينى أيا كان الأصل الجنسى والسلالة العرقية ودون أن تعنى أن صاحبه من نسل بنى إسرائيل التوراة بالضرورة .

تلك إذن مجموعة من الصفات الجسمية المنسوبة الى اليهود او الملاحظة فيهم ، لا تدل على الأصل العرقى ولا تحسم مشكلة . وهى إن دلت على شىء فانما تدل على انعدام أى وحدة بين يهود العالم فى تلك الصفات ، إن لم تدل حقا على تأثير بعيد المدى للسكان الذين يعيش بينهم اليهود ، أى على الاختلاط الجنسى وامتزاج الدماء . ولكننا نفضل أن نؤجل هذا الحكم ريثما نستكمل بقية صفات اليهود الجسمية . فنصل الآن الى الصفات الجنسية التي تعد محور الدراسات الانثروبولوجية جميعا ، ترتبط مباشرة بالوراثة ولا تكاد تتأثر بالبيئة ، ويمكن أن تكون مؤشرا وثيقا الى الاصول الاولى ومقياسا ومحك

للنقاوة أو الخلط . إنها لا شك شكل الراس .

وكما رأينا فان يهود بنى إسرائيل فى فلسطين التوراة كانوا ككل الساميين المحيطين طوال الرءوس أساسا . فإذا ما وجدنا رءوسا غير ذلك بين يهود اليوم فليس ثمة إلا تفسير واحد وحيد لا سبيل الى الشك فيه وهو اختلاط الدم بعناصر غريبة . هذا مع التذكرة بأن سيادة طول الراس نفسها بين اى مجموعة من اليهود لا تنفى عنهم بالضرورة امكانية حدوث اختلاط جنسى ما مع غيرهم من طوال الرءوس ، لان تزاوج طوال الرءوس بطوال الرءوس لا ينتج الا طوال رءوس مثلهم . فكيف إذا رصدنا شكل الراس عند اليهود فى مسح عام ؟

من بين المجموعات الرئيسية الثلاث ، الاشكناز والسفارديم والشرقيين ، يقع الاشكناز جميعا بين عراض الرءوس ، واحيانا بين عراض الرءوس جدا . هكذا هم فى كل أوربا والعالم الجديد ابتداء من الفولجا حتى كاليفورنيا ، حيث

تصل نسبتهم الراسية الى مثل ما للالمان الجنوبيين والفرنسيين الالبيين . بل اهم من هذا انهم فى ذلك يشبهون السكان المحيطين محليا ويقتربون جدا من شكل ونسبة راسهم . فليس ثمة فارق مثلا بين اليهود والمسيحيين بالروسيا وبولندا فى شكل الراس ، بينما فى منطقة القوقاز تتحول رءوسهم الى شكل "قمع السكر" الشهير عند الارمنيين والقفقاز ، بل نجده حتى فى يهود التركستان .

على أن كون يلاحظ أن الاشكناز فى اوروبا يقلون فى نسبة عرض الراس - وإن يكن قليلا جدا ، درجة أو اثنتين - عن السكان المحيطين ، كما ان وجوههم اقل استعراضا أو أكثر استطالة نوعا ما . ولهذا ينتهى كون الى ان اليهود قد حققوا ايضا فى مجال شكل الراس توازنا ثابتا كما فعلوا فى لون الشعر . هذا عن الاشكناز .

ولقد كانت النظرية الشائعة بعد هذا ان السفارديم على طرف النقيض مباشرة من الاشكنازيم ، اى طوال الرءوس جميعا ، ولكن هذه

المقابلة تبسيطية اكثر مما ينبغى ، فحقا يغلب طول الراس بين السفارديم ، ولكن منهم جماعات استعرضت رءوسهم كما فى شمال ايطاليا حول تورينو وغيرها ، وربما لحقت بهم جماعات أخرى من سفارديم البلقان . ومع ذلك يمكن بصورة عامة جدا ان نقبل تلك المقابلة العريضة من قبيل التبسيط الميسور .

هذا ويلاحظ ان السفارديم يعيشون جملة بين شعوب طويلة الرأس كالبربر والعرب بحيث لا يمكن للتزاوج ان يغير من شكل رءوسهم وإنما على العكس يؤكده . غير ان مما يجدر ذكره ان ابعاد مقاييس الراس المطلقة فى ذاتها أقل بعامة بين هؤلاء اليهود منها بين شعوب الجوبيم المحيطة ، واقرب بذلك - هكذا يقول كون - الى نمط يهود فلسطين التوراة او السامرة .

يبقى اليهود الشرقيون . هؤلاء يأتون فى المنزلة بين المنزلتين أو بالاحرى يقعون فى حدود التصنيف . فجزء منهم طوال الرءوس كالسفارديم ، وهذا يشمل يهود مصر والشام

واليمن والعراق وجنوب ايران . وهنا أيضا يلاحظ ان السكان المحيطين طوال الرءوس ، الا ان ابعادهم المطلقة اى حجم الرأس أكبر نوعا بدرجة وبالاخرى من اليهود .

أما الجزء الآخر فهو كالاشكناز استعرضت رءوسهم كما فى شمال العراق ومنطقة جبال القوقاز وشمال ايران ، ثم يهود التركستان الروسية بكل شظاياها ، وأخيرا اليهود القرائين فى القرم وليتوانيا . ففى كل هذه الحالات يعيش اليهود فى محيط واسع من عرض الرأس الشديد ، وفيه استعرضت رءوسهم بشدة حتى لا يختلفون عنه البتة . الا ان هناك فارقا فى شكل الوجه - لا الرأس - فهو يميل نوعا الى الاستطالة بينما هو عريض بين السكان المحيطين ، وهو فى هذا يذكر الى جد ما بوجوه يهود فلسطين التوراة ، والسامرة . ومع ذلك فهو أقل ميلا الى الاستطالة بين يهود دائرة القوقاز والقرم منه بين يهود دائرة التركستان .

من هذا المسح السريع نصل اذن الى ان اليهود يقعون من حيث شكل الراس فى مجموعتين : عراض رءوس وطوال رءوس . والمجموعة الاخيرة تشمل أغلب السفارديم ونصف الشرقيين ، أما الاولى فتضم النصف الآخر - الشرقى أو الشمالى - من اليهود الشرقيين بالاضافة الى كل الاشكناز . ومن الناحية العددية ، ولها هنا مغزى كبير ، تزيد مجموعة عراض الرءوس على ٨٠ - ٩٠٪ على الاقل من كل يهود العالم ، والاقلية الضئيلة الباقية هى طوال الرءوس . ومن الناحية الجغرافية ، يتوزع عراض الرءوس من اليهود فى مناطق سكانها عراض الرءوس ، ابتداء من وسط اوروبا حتى وسط آسيا ، بينما يقيم طوالهم بين اجناس طويلة الراس ابتداء من المغرب حتى العراق .

ومن هذا وذاك يتضح على الفور أن الاغلبية الساحقة من اليهود إنما تحولت الى عراض الراس بعملية استعراض Brachycephalisation أو تأثر بالألبية أو الدينارية كما تسمى علميا -Alpinisa

tion Dinaricisation وذلك عن طريق واحد ووحيد وهو التزاوج والاختلاط الجنسى مع غير اليهود ، بينما الاقلية التى احتفظت بطول راسها الاصلى لا يتحتم بالضرورة أن تكون قد أفلتت من مثل ذلك الاختلاط ، ولكنه امر متروك فى هذه الحالة الى الادلة التاريخية . وهذا ما ينقلنا الى قضية النقاوة الجنسية والاختلاط ، شواهدها وادلتها ، أبعادها ومغزاها .

نقاوة ام اختلاط:
يهود تاوربوا ام اوروبيون تهودوا ؟

حسنا ، بأى مغزى يمكن أن نخرج من هذه الدراسة ، وأى معنى تحمل بالنسبة لدعاوى الصهيونية السياسية وغير السياسبية ؟ الشئ المحقق أن ما قد يختص ويشتهر به اليهود من "طابع" أو "سحنة" مميزة هو امر لا ينكره العلم تماما ، ولكنه ظاهرة جزئية ليست بجامعة أو بمانعة من ناحية ، ومن ناحية أخرى فانها برمتها ظاهرة حضارية من صنع اليهود انفسهم ونتيجة



لإحساسهم الملتهب بذاتهم طائفيا وشعورهم المتضخم بكيانهم الدينى ، وليست صفة جنسية دالة ولا تعنى البتة وحدة الأصل او نقاوة السلالة . بل على العكس من هذا تماما ، يمتاز اليهود بمناقضة فذة وحقيقية جدا : شبه تجانس أو شبه وحدة جزئية فى السحنة والنظرة العامة ، وتنافر مطلق فى الأصل الجنسى .

ويحاول كون أن يجعل من اليهود طوال الرءوس من السفارديم وبعض الشرقيين وحدة اثنولوجية Ethnic Unit قائمة بذاتها ، قد تتباين فيما بينها من منطقة الى منطقة ، ولكنها بعامة تتباين اكثر مع السكان المحيطين . وبالمثل يصور اليهود الاشكناز ومعهم بقية الشرقيين على أنهم وحدة اثنولوجية أخرى . ومع ذلك فهو يعترف بأن كل نوع أو سلالة جنسية معروفة فى اوروبا يمكن بسهولة أن تلتقط من مبين يهود القارة ، وأن اغلب اليهود يمثلون خليطا بطريقة أو بأخرى بين عديد من تلك الانواع والسلالات . وكذلك يضيف ان من السهل جدا أن نلتقط من بين يهود الروسيا افرادا

يمتازون بالصدغ الواسع والأنف العريض القصير Snuo وعظام الوجنة البارزة بدرجة لا تفرقهم عن جماعات الفن المغولية التى تسكن منطقة الفولجا ، بينما يوجد بين اليهود الألمان أفراد هم بكل معنى الكلمة نورديون مثاليون .

ويمكن من ناحيتنا أن نضيف على مستوى العالم متناقضات كالموزايكو تكاد تغطى كل ما نعرف بين البشر من اختلافات . فى الصفات الجنسية . فثمة اليهود السود فى الحبشة وجنوب الصحراء الكبرى . واليهود الملونون فى الهند ، بل والصفر أحيانا فى التركستان ، وأخيرا اليهود الشقر فى أوروبا . او كما لاحظ دالبى Dalby فى اواخر القرن الماضى هناك كل الانواع والالوان بين اليهود ـ البيض والسمر والسود . هناك اليهودى الربعة غليظ الملامح عريض الراس من الاشكناز ، واليهودى النحيف دقيق الملامح طويل الراس من السفارديم ، ثمة الأنف اليهودى المحدب والأنف المقعر بين كثير من يهود الروسيا ، ثمة العيون اللوزية فى السفارديم والمكتنزة

الضخمة فى الاشكنازيم والعيون المغولية المسحوبة فى بعض يهود وسط آسيا .

وبعامة فان السفارديم أشبه بعنصر البحر المتوسط والاشكناز اشبه بالصقالبة الشماليين . وفضلا عن هذا فان الدراسات السيرولوجية أثبتت تماما أن اليهود يبدون فيما بينهم معدل تفاوت كبيرا جدا فى فئات الدم مما ينفى تجانس الاصل ، وأكثر من ذلك لا تبدى تلك الفئات أى علاقة بفئات الدم عند اليهود السامريين ، مما يؤكد عمق انفصالهم جنسيا عن الاصل القديم .

واضح تماما اذن أن الحديث عن وحدة جنسية بين اليهود ككل لا محل له من حقيقة أو علم على الاطلاق ، وأن اليهود لا يعرفون الوحدة الجنسية اكثر مما يعرفون الوحدة الجغرافية . وواضح بالتالى أن النقاوة الجنسية المزعومة لهم إنما هى محض "خرافة" كما يعبر ربلى . والواقع أن هذه قضية لم تعد ، بل لم تكن قط ، موضع جدل بين

العلماء . فكما قال رينان من قبل ، أن المغزى الاثنولوجى لكلمة يهود - على الأقل فى شرق ووسط اوروبا - قد انتهى منذ امد طويل . وفى نفس المعنى أكد دالبى انه ليس ثمة بعد أى شىء كقضية جنس يهودى على الاطلاق . وكما يقول ربلى من بعد : ليس اليهود جنسا بل مجرد "ناس" بكل بساطة .

وعلى هذا الحكم الحاسم الأخير يعلق مؤلفو كتاب «نحن الأوربيين We Europeans» وهم جوليان هكسلى وهادون وكارسوندرز : "ونحن نعتقد انه على صواب . إن اليهود لا يمكن أن يصنفوا لا كأمة ولا حتى كوحدة اثنولوجية ، بل هم بالاحرى مجموعة اجتماعية - دينية تحمل قدرا كبيرا من عنصر البحر المتوسط والارمنى وغيرهما كثير ، وتتفاوت تفاوتا عظيما فى الصفات الجسمية " . ثم يضيف هؤلاء الكُتّاب قائلين "إن اليهود المحدثين إن لم يكونوا أرمينيين فى الأعم الاغلب ، فانهم بالتأكيد يبدون من الصفات الارمينية اكثر مما يبدون من الصفات « السامية » وان النمط

الجنسى الذى يميز طائفة السامريين ، وإن كنا نلقاه بين اليهود المحدثين الا انه بالتأكيد نادر بينهم" .

ومن بعد ربلى ومن بعد معلقيه أيضا يقرر هوتون Hooton بجزم قاطع :"حقيقة هى لاشك ان اليهود مختلطون جنسيا ومن أصول طبيعة متنوعة" . وهو إذا كان يجد فيهم قدرا ما من وحدة طبيعية ونفسية وحضارية ، فما هى بوحدة جنسية تماما ولا وطنية ولا لغوية ولكن الى حد ما كل أولئك. ويؤكد أشلى مونتجيو Ashley Montagu نفس الانتهاء فيقرر على النقيض مباشرة من كون أن اليهود ليسوا وحدة أثنولوجية بل، باصطلاحه، مجرد «معزولة حضارية Cultural isolate.

والسؤال الآن : كيف تم اختلاط أو تخليط اليهود ، وما هى الادلة والشواهد التاريخية عليه ؟ لنذكر أو لنتذكر أولا أن اليهود من أصحاب نظرية النقاوة الخرافية يحاولون بكل وسيلة إثبات العكس على اساس ان حياة العزل فى الجيتو والعداء والاضطهاد الدينى عوامل مضادة للاختلاط

والتزاوج . ولكن الواقع التاريخى اليقينى كما سنرى يكذب هذا التصور أو التصوير تماما . كذلك فانهم يتخذون من اسماء الاشخاص اليهودية دليلا على عدم التزاوج ، فعلى سبيل المثال أسماء كوهن وكوهين .. الخ تشير الى نسل الكوهانيم أو الكوهانين Cohanim أبناء هارون وكهنة المعبد القدامى (والاسم كوهين تحريف للكلمة العربية كاهن) وهؤلاء محرم عليهم كلية أى دم غريب . ولكن الحقيقة أن هذا الاسم خرج عن حدوده الاصلية واصبح اكثر أسماء اليهود شيوعا . ومن الناحية الاخرى ، فان أسماء يهودية اصيلة وبحتة هى اليوم من اكثر الأسماء شيوعا بين الملايين من المسيحيين فى أوروبا . فكيف حدث هذا بغير التزاوج والتجول ؟

الحق أن موقف اليهود أصحاب نظرية النقاوة ليس غير علمى فحسب ، ولكنه ايضا انتهازى ومغرض بوضوح ، ولذا لا يمكن الاعتداد به فضلا عن الاعتماد عليه . ويكفى للتدليل على هذا الذى نقول أن نذكر موقفهم أيام اضطهاد النازية فى

المانيا . فلما كان كل شىء يقاس حينذاك بالجنس النوردى والأصل الآرى ، فقد كان اليهود يدعون أنهم من ذلك الجنس والأصل ليفلتوا من عقاب ولعنة السامية . أما الآن بعد اغتصاب فلسطين ، فكل دعواهم أنهم ساميون لحما ودما !

ولكى نعرف أين الحقيقة فى هذا الانقلاب الانتهازى الفاضح ، يكفى أن نورد تعليق هوتون على اضطهاد المانيا النازية لليهود حيث يسخر قائلا أن اليهود ربما كانوا يمتلكون من الدم النوردى مثلما يمتلك الالمان أنفسهم ! ولاشك أن مما له مغزاه كذلك أن القليل من الكُتّاب الذين يأخذون بنظرية نقاوة اليهود الجنسية هم من دعاة النظريات العنصرية التى نبذها العلم تماما مثل هوستون ستيوارت تشمبرلن الذى يزعم أن تلك النقاوة هى سر قوتهم مثلما تجعلهم "غرباء بين كل الأمم" !

التزاوج والتحول اذن حقائق لاشك فيها ، وعليها يجمع جمهرة الانثروبولوجيين ابتداء من كين الى ربلى الى كون .. الخ . فهذا كين يتكلم

عن "الـزيادات الضـخمـة من (الجنتيل) المتحولين" ، ويقول "ان الافتراض بأن اليهود ضموا قليلا أو لا شىء من المتحولين هو افتراض لم يعد بعد مقبولا" . ويضغط مؤلفو "نحن الأوروبيين ، خاصة على نقطة مهمة وهى أن نمو أعداد اليهود فى المهجر بعد الشتات بمعدلات غير معقولة إنما يرجع فى جزء منه الى التحولات الضخمة الى اليهودية اما ربلى فيقرر أن ليس ثمة أيسر من اثبات الاختلاط والتزاوج والتحول بين اليهود والجنتيل فى أوروبا وخارج أوروبا .

ولقد كان هناك طريقان أساسيان لانتشار اليهودية وتمددها : التحول الدينى سواء من الوثنية أو المسيحية ، والتزاوج والامتـزاج الدموى . وللتحول شكلان رئيسيان : التحولات بالجملة ، وهى معروفة محددة تاريخياً أهمها حالة الخزر والفلاشة واليهود السود من التاميل واليهود القرائين فى طوروس .

الشكل الثانى هو التحولات الفردية المستمرة فى كل مكان وزمان . أما التزاوج فشكلاه الزواج

العلنى والسرى أو العلاقات الجنسية غير الشرعية . وكُتّاب اليهود يصرون على ضآلة دور التحولات بعامة والتحولات الجماعية بخاصة فى انتشار اليهودية . وعلى أية حال فلا شك أن اليد العليا كانت دائما للتزاوج ، هادئا ودفينا ومزمنا . وقد ارتفع التزاوج المختلط بين اليهود والجنتيل الى نسب عالية فى فترات الهدوء وتوقف الاضطهاد ، فإذا كان الزوج يهوديا نشأ الأبناء يهودا ، ولكن كان يحدث أحيانا أن تنتزع ديانة الزوجة اليهودية الأبناء من ديانة الأب .

ادلـة الاختـلاط التاريخيـة

فى ضوء هذه الأسس العامة ، نود الآن أن نستقرىء وقائع التاريخ نفسه ، ماذا تقول وكيف تحكم فى قضية الاختلاط والتحول . فإذا بدأنا عرضنا التاريخى من البداية ، فسنجد أن يهود فلسطين التوراة تخلطوا فى عقر دارهم مع جيرانهم من الفلسطينيين (كما تدل قصة شمشون اليهودى ودليلة الفلسطينية) ومع


راقصة يهودية من تركيا

جيرانهم من العموريين والحيثيين (كما يشير سفر حزقيال : "أمك كانت حيثية ، وعموريا كان أبوك") . وهذا الاختلاط الجنسى كان أقوى على حواف وهوامش كتلة هضبة يهودية المفتوحة نوعا منه فى قلبها الوعر المعزول . وكثيرا ما فرض على اليهود الذين اتخذوا زوجات "وثنيات" من الأجانب المحيطين أن يتركوا الوطن الى تلك السهول المجاورة . كذلك فمن الثابت ابان الأسر البابلى الذى استمر ١٤٠ عاما أن كثيرا من اليهود تخلوا عن ديانتهم القديمة .

وبوجه عام فنحن نجد منذ بداية التاريخ أن الرفض للزواج المختلط بين اليهود والجنتيل لم يكن قط جنسيا بل دينيا ، بحيث ينتهى إذا تحول الجنتيل الى اليهودية ، والواقع أنه فى أيام اليهودية الأولى لم يكن الزواج من غير المؤمنين ممنوعا أبدا ، كما حدث فيما بعد . هكذا يذكر المؤرخ جوزيفوس أن يهود انطاكية نجحوا فى تحويل الكثيرين الى عقيدتهم وأدخلوهم مجتمعهم . وقد حدث عدد كبير للغاية من التحول



مجموعة من يهود الأرجنتين

الى اليهودية بلا شك فى القرن الثانى الميلادى . ومن الامثلة المهمة النساء اليهوديات اللائى تم بيعهن كاماء وأخذن الى مقاطعة الراين كزوجات لجنود الرومان ، وبعض هؤلاء الجنود هجروهن عند نقلهم الى مواقع أخرى ، فشب أبناؤهم كيهود .

والثابت أن التحول والاختلاط كانا من المظاهر المتفشية قبل العصر المسيحى مباشرة وفى قرونه الأولى . فحين تشتت اليهود فى العالم المتوسطى وجدوا أنفسهم ازاء اختيارين : إما أن يرتدوا وثنيين كجيرانهم الجدد ، وإما أن يحتفظوا بديانتهم . وهناك ـ كما يقول بيرجل ـ "أصبح الكثيرون ، ربما الأغلبية ، وثنيين ، وذلك لأن من بين القبائل الاثنتى عشرة عشرا « مفقودة » كما تحدثنا الروايات" . وفى حالة التحول كان اليهود يفقدون كيانهم الجنسى جنبا الى جنب مع كيانهم الدينى ، ويصبحون جزءا لا يتميز عن الأمة التى أقاموا بينها . أما إذا ظلوا على يهوديتهم ، فانها اذن العزلة الاجتماعية ، ومن ثم فلا تزاوج إلا إذا

تحول الوثنيون الى اليهودية ، وهذا بالدقة ما حدث مرارا وتكرارا لأن اليهود قاموا بكثير من التبشير بنجاح عظيم عبر قرون طويلة ، وهذا ما يفسر جزئيا تنوعهم وتباينهم الجنسى . الا أن الموقف تغير بعد أن اصبحت المسيحية الديانة الرسمية للامبراطورية الرومانية ، حيث أصبح التحول الى اليهودية صعبا ، ولكن التزاوج والعلاقات غير الشرعية لم تتوقف .

اما فى العصور الوسطى حيث أصدرت المجالس الكنسية قرارات صارمة بمنع زواج المسيحيين باليهود كما فعل مجلسا توليدو عام ٥٣٨ ، ٥٨٩ ، ومجلس روما عام ٧٤٣ ، فان أغلب الكُتّاب يفسرها على أنها دليل على خطورة المدى الذى كان الزواج المختلط قد وصل اليه بالفعل . بل أن اضطهاد القوط الغربيين فى اسبانيا لليهود فى القرن الخامس والسادس الميلاديين إنما يرجع ـ كما يؤكد كين ـ الى نشاطهم التبشيرى الخطير والى تفشى الزواج المختلط بينهم وبين المسيحيين .

وثمة ادلة اخرى على الاختلاط والتحول على نطاقات اقليمية كبيرة . فالسفارديم قبل خروجهم من اسبانيا كانوا قد استوعبوا دماء أيبيرية وغربية وبربرية كثيرة فى عروقهم . وفى شمال افريقيا من المؤكد ـ كما رأينا ـ أن اليهودية كانت قوية الانتشار بين كثير من قبائل البربر قبل قدوم الإسلام مباشرة . وفى المغرب يبدو اليهود المتكلمون بالبربرية اليوم مختلفين بشدة عن يهود السفارديم المتكلمين بالاسبانية فى المدن المغربية بينما أن اليهود المتكلمين بالعربية فى نفس المدن ينحدرون من أكثر من أصل يهودى واحد أهمه بلا شك العنصر البربرى . أما فى أوربا فالادلة التاريخية تشير بكل قوة الى أن اجداد الاشكناز اختلطوا مع ابناء غرب أوربا الى ما قبل الحروب الصليبية الأولى اختلاطا أقوى من اختلاط أجدادهم الأحدث مع أبناء البلاد السلافية فى شرق القارة . فغزارة شعر اللحية والجسم وتموج شعر الرأس ، الى جانب عرض الرأس ، تدل على تأثير جنسى البى فرنسى أو المانى أكثر منها مؤثرات سلافية .

اما عن التحول ، فقد صدر كثير من التشريع الصارم ضد استخدام اليهود لخدم مسيحيين ، خشية تحولهم الى اليهودية ثم الزواج بهم . إلا أن الأرجح ان هذا المنع لم يجد نفعا ، حيث نجد على سبيل المثال كبير أساقفة المجر يقرر فى عام ١٢٢٩ أن كثيرا من اليهود كانوا يعيشون حياة غير شرعية مع زوجات مسيحيات ، وأن التحولات "بالآلاف" كانت مستمرة وفضلا عن هذا ، فلم يكن القانون يتضمن حماية العبيد والأقنان من امكانية التهود والزواج من اليهود . وفى اسبانيا والبرتغال بعد الاسترداد أجبر مئات من الآلاف من اليهود على التنصر بالقوة والتحول الى المسيحية حيث ذابوا بعدها فى السكان .

اما فى عصرنا الحديث فتتوافر الأدلة والأحداث الثابتة التى تؤكد التزاوج والتحول على حد سواء . فمع الهجرة الى العالم الجديد تحول كثير من الهنود الحمر والزنوج فى أمريكا الوسطى والجنوبية الى اليهودية ـ ولا علاقة لهم جنسيا ودمويا باليهود أصلا . ومع اختفاء التعصب

الدينى فى أوروبا الصناعية ، وأكثر منه مع العلمانية المطردة ، انهارت الحواجز أمام التحول والزواج وتوسعت العلاقات غير الشرعية . وإذا كانت التحولات الجماعية بالجملة قد قلت ، فقد زادت بصورة لافتة للنظر التحولات الفردية فى العصور الحديثة ، ويمكن أن نتخذ من بعض الأسماء مؤشرا فى ذلك الاتجاه : مثلا الشاعر هاينى والموسيقى مندلسون وغيرهما من اليهود الذين اعتنقوا المسيحية . وفى روسيا القيصرية كان حصول اليهود على المساواة المدنية رهنا بتحولهم الى المسيحية .

ومن الأدلة القاطعة بل والمثيرة على مدى اختلاط اليهود فى العصور الحديثة والوسيطة فى أوروبا ما كشفت عنه تجربة النازية فى ألمانيا . فقد كان على المرء الذى يبغى اثبات الدم الآرى فيه أن يقدم نسبا يخلو لعدة أجيال من العناصر غير الآرية ، يعنى هنا اليهودية بالتحديد . ولكن المفاجأة أن التجربة كشفت أن عددا ضخما من الحالات من المواطنين الألمانيين "الى أقصى

حد" ثبت ان اجدادهم واجداد أجدادهم تجرى فى عروقهم الدماء اليهودية !ـ تماما كما تردد عن ريشيار فاجنر من قبل ..

وفى العام الماضى فقط أخرج كاتب فرنسى كتابا كان له دوى كبير حيث اثبت أو حاول أن يثبت بتتبع شجرات الانساب الدقيقة لمعظم الشخصيات المسيحية البارزة فى العالم الغربى من عائلات مالكة ورؤساء وزعماء ... الخ . كيف تجرى فى عروقهم دماء يهودية بدرجة أو بأخرى ، وبالعكس فإن كثيرا من اليهود المعروفين داخلتهم دماء مسيحية . أما فى الولايات المتحدة ، حيث أعظم مستعمرة لليهود اليوم ، فمن المعلومات العامة للكافة والخاصة انتشار الزيجات المختلطة ووجود انصاف وارباع اليهود ... إلخ ، لاسيما منذ القرن الماضى حين أصبح الزواج المدنى مباحا وقانونيا .

والواقع ان هذه النقطة الاخيرة تنقلنا الى اخرى لا تقل اهمية ومغزى ، تلك اعنى ظاهرة ذوبان أو انصهار اليهود واندماجهم أو

امتصاصهم فى شعوب العالم المعاصر الحديثة Assimilation ، وموقف الصهيونية السياسية منها . فالصهيونية إذ تحاول عبثا أن تجعل من اليهودية العالمية شعبا وقومية وأمة بل وجنسا مستقلا وليس مجرد طائفة دينية تقطع عبر ، وتجمع بين عشرات الشعوب والقوميات والامم والاجناس ، لا تزيف حقائق التاريخ الواقع فقط ، ولكنها تقاوم وتحارب حتمية حركة التاريخ التقدمية وتسعى الى تجميد تطور المجتمع الإنسانى . فالصهيونية تعلم علم اليقين أن الاضطهاد الذى تعرض له اليهود فى أوربا الوسيطة والحديثة لا يرجع الى التعصب الدينى وحده بقدر ما يرجع الى طريقة حياة اليهود وانعزالهم وطبيعة حرفهم الابتزازية ومركب احساسهم المتضخم بأنفسهم وادعاءاتهم بالتفوق الموهوم ، وتعلم الصهيونية كذلك أن عصور الاقطاع والحكم الاوتوقراطى المطلق ومناخ الطبقية التقليدية كانت تشكل بيئة ملائمة وقوى ضاغطة ودافعة لهذا الاضطهاد بمثل ما أن هذا الاضطهاد ذاته بيئة ملائمة وقوة دافعة

لليهود انفسهم الى مزيد من الإصرار والتمسك بانعزاليتهم وانفراديتهم وتضادهم .

وهى - الصهيونية - ترى الآن أن روح الليبرالية المعاصرة السارية وتطور الوعى السياسى فى المجتمع الصناعى الجديث ومثل التسامح الدينى إن لم يكن اللامبالاة الدينية ، كلها طفرات جديدة وخطيرة "تهدد" بانتهاء اضطهاد اليهود ونهاية ضد السامية ، وبالتالى تهدد بسقوط الستار الحديدى الذى ضربه اليهود حول انفسهم وانتفاء التضاد السادى - المازوكى الذى افتعلوه مع بيئاتهم ، ومن ثم تهدد بذوبانهم فى شعوب الامم ثقافة ولغة بل ودينا وجنسا .

ومن هنا تصل الصهيونية فى انحرافها الى حد الشذوذ الفكرى والعنصرى ، فنجدها تحاول محمومة استبقاء مناخ الاضطهاد وشبحه وتجسيد اسطورته الى الابد لتوقف تيار الذوبان الغلاب الذى يظل مع ذلك يفرض نفسه كواقع قاهر يتمثل اخطر ما يتمثل فى التزاوج المختلط مع غير اليهود ، وفى تحول بعض اليهود الى عقائد

اخرى . ولئن كان هذا اليوم اوضح واخطر مايكون فى بوتقة الولايات المتحدة ، فان اوروبا الغربية تعرفه ايضا بدرجة أو بأخرى . والخط التاريخى الذى اكد نفسه منذ البداية وهو تخلط وتهجن اليهود وذوبانهم جنسيا ، يعيد اليوم تأكيد نفسه برغم انحرافات وشعارات الصهيونية ، بل ويفرض نفسه اكثر منه فى اى وقت مضى .

ولنقف هنا قليلا عند يهود الولايات المتحدة . الثابت أن اليهود حيثما حصلوا على المساواة القانونية الكاملة فى الحيثية المدنية ، كما فى الولايات ، فكثيرا ما يتزوجون من الجنتيل . فإذا أصر الطرف اليهودى على أن يغير الطرف الآخر عقيدته نشأ الابناء يهودا وظلت الاسر يهودية . اما إذا تحول الطرف اليهودى الى المسيحية فقد يتزوج الابناء فيما بعد يهودا ويعودون بذلك الى اليهودية ، والا فان الاسرة اليهودية تنقرض فى النهاية . غير انه ليس ثمة حالة معروفة تحول فيها اليهود الى المسيحية ثم ظل الجيل الثالث يهوديا . وهكذا فان التحول الدينى يؤدى فى النهاية الى

التمثل والانصهار مع المجتمع الأمريكى .

والاحصائيات تدل على زيادة مطردة فى الزيجات المختلطة بين اليهود . فقد وجد أحد الباحثين الاجتماعيين أن نسبة الزواج الداخلى بين اليهود فى مدينة نيوهافن عام ١٩٤٦ كانت ٩٧٪ ، وأن ٣٪ يتزوجون خارج الطائفة . ووجد بحث آخر ان نسبة الزواج المختلط فى نفس المدينة ارتفعت من ١ر١٪ الى ٣ر٦٪ بين ١٩٠٠ ، ١٩٤٠ ، اى انها وصلت الى ضعف التقدير الأول . والواقع أن اليهود أكثر تعرضا للعلمانية المطردة إذا قورنوا بغيرهم من الأقليات الامريكية . والى جانب ذلك فانهم كمجتمع مدن اساسا يمتازون بمعدل مواليد منخفض ، بل أشد انخفاضا منه بين أى مجموعة مدنية أخرى ، ولا يمكن أن يعوضوا أو يحافظوا على أعدادهم بالتزايد الطبيعى ».

وفى النتيجة ـ هكذا ينتهى كاتب مثل بيرجل ـ فان يهود امريكا لابد أن يتناقصوا عدديا سواء

على الاطلاق أو بالنسبة الى مجموع السكان ومع تسارع واطراد العلمانية والانصهار فلا مفر لهذا التناقض من أن يشتد ويشتد . ومن هنا يمكن أن نعتبر اليهود كأقلية فى الولايات المتحد "ظاهرة عابرة" فى نهاية المطاف ، ولا يؤخر اختفاءهم النهائى الا ضد السامية أكثر من اى عامل آخر . ولا سبيل الى الشك فى صحة هذه النبوءة العلمية ؛ فالصهيونية نفسها على وعى تام بها ، وهاهى ذى جولدا مايير أعلنت أخيرا فى صرخة مجموعة أنه فى خلال جيل او اثنين سينتقص يهود الولايات المتحدة إلى ٥ر١ مليون نسمة . لقد شهد شاهد من اهلها ـ اقصد اعترف متهم من عصابتها .

لن يجدى اذن تصايح وصراخ الصهيونية العالمية شيئا ازاء حضارة العصر المتفجرة المعدية الكاسحة التى لا مكان فيها لعزلة وعقلية الجيتو ، وأين ؟ـ فى قلب دوامة تلك الحضارة وفى عين اعصارها فى الغرب الاوروبى والامريكى ! وإذا كانت العصور الوسطى هى عصر تحول غير

اليهود الى اليهودية ، فان عصرنا أصبح بوضوح تام عصر تحول يهود الى غير اليهودية !

من هنا نفهم كيف ان الصهيونية "تتاجر" بالفعل فى الاضطهاد ، تذكى ذكراه وتؤجج ناره كلما خبت جذوتها أو رمادها ، وتراه ضمان بقائها ، فى الوقت الذى تمثل فيه إسرائيلها دولة المنتفعين بهذا الاضطهاد . بل أن الفكرة الجذرية فى خلق إسرائيل ليست فى النهاية الا فكرة الجيتو بحذافيرها وإنما على مقياس مجمع كبير : فهى وعاء موحد لاستبقاء انعزالية اليهود على الجوبيم وتضادهم معهم : إنها الجيتو دولة أو هى دولة الجيتو . ولكن كما ذاب ويذوب الجيتو فى الخارج لن يمضى وقت طويل حتى يذوب ويزول جيتو إسرائيل الى الابد .

وبعد ، فلقد انتهت رحلتنا عبر التاريخ بحثا عن الأدلة والشواهد اليقينية على اختلاط وذوبان اليهود ، فهل يمكن من محصلة هذا العرض المفصل أن نضع أيدينا على جوهر وميكانيزم

العملية كلها ؟ نعم ، وجغرافى يهودى بالذات - هنتنجتون - هو الذى يضعها بين أيدينا ! فطوال التاريخ - كما يقول - نلمح ظاهرتين أساسيتين : أعداداً ضخمة من غير اليهود تدخل اليهودية ، وفى نفس الوقت أعداد من اليهود لا تقل ضخامة تخرج من اليهودية .

وفى النتيجة فان جسم الطائفة ليس ثابتا جنسيا بل هو متحرك وفى تغير داخلى مستمر وفى ابتعاد دائم عن الأصول الاولى بحيث يتضاءل أبدا وباستمرار حجم النواة النووية الحقيقية من بنى إسرائيل التوراة فيهم حتى لتكاد تختفى وتنقرض فضلا عن أن تظل قابلة للتعرف عليها وتحديدها . إنها عملية احلال وابدال مزمنة دائما ، معدية أحيانا ، ظاهرة ومستترة ، وئيدة ربما ولكنها أكيدة قطعا . إنها تكاد تقول عملية "تغيير دم" كلية وشاملة .

وفى النتيجة يكاد يصبح جسم اليهود فى آخر المطاف شيئا مختلفا انثروبولوجيا عن يهود التوراة إن لم يكن لا علاقة له بهم تقريبا أو فى

الأعم الأغلب . ويتأكد هذا كله حين نتذكر ما سبق ان ألمحنا اليه بشأن تعداد اليهود حيث بدأوا الشتات بأرقام هزيلة جدا ولكنهم سرعان ما بلغوا الملايين رغم كل المذابح والاضطهادات .

نستطيع إذن أن نخلص من هذا كله بثقة واطمئنان الى أن اليهود يتألفون من دماء مختلطة كأشد ما يكون الاختلاط . وإذا كان ثمة خلاف بعد هذا ، فانما يدور حول المدى والدرجة والى أى حد . هنا نجد رأيين أساسيين : فيرى ربلى أن اليهود يأخذون اينما كانوا صفات السكان الذين هم مقيمون بينهم وابرز ما يتمثل هذا فى شكل الراس ، الاساس الانثروبولوجى الأول والجوهر ، ثم الى حد ما فى لون البشرة ، وبناء على هذا يقبل رأى لومبروزو Lombroso القديم من أن اليهود جنسيا اريون اكثر منهم ساميين او بتعبير آخر إنهم أوروبيون تهودوا اكثر منهم يهودا تأوربوا .

"والى نفس المدرسة والرأى ينتمى مؤلفو "نحن الاوروبيين" : "إن اليهود - هكذا

يؤكدون - من أصل مختلط ، وقد ظلوا باستمرار يزدادون اختلاطا" . ثم يضيفون "كان هناك دائما قدر معين من التزاوج بين اليهود وغير اليهود من سكان البلاد التى اقاموا فيها .. بحيث أن عددا من الجينات المستمدة من اليهود المهاجرين يتوزع بين مجموع السكان ، وان المجتمعات اليهودية اصبحت تشبه السكان المحليين فى كثير من الخصائص . وبهذه الطريقة اصبح يهود افريقيا وشرق أوروبا واسبانيا والبرتغال ... الخ مختلفين بوضوح عن بعضهم البعض فى النمط الجسمى" .

ويؤكد نفس الكُتّاب الفكرة فى موضع اخر قائلين "والنتيجة أن يهود المناطق المختلفة ليسوا متماثلين جينيا وأن السكان اليهود فى كل بلد يتداخلون ويتشابكون مع غير اليهود فى كل صفة يمكن تصورها . وكلمة يهودى صحيحة كوصف اجتماعى - دينى أو شبه قومى اكثر منها كتعبير انثولوجى فى أى معنى جينى (ولو أن هذا لا يقصد به أن اليهود امة بالمعنى المفهوم

للكلمة) . وكثير من الصفات « اليهودية » هى بلا شك نتاج التقاليد والتربية اليهودية خاصة رد الفعل ضد الضغط الخارجى والاضطهاد أكثر منه نتاج الوراثة" .

ومرة ثالثة يضغط هؤلاء المؤلفون على نفس الانتهاء فيقولون إن "ما احتفظوا به وورثوه ليس « صفات جنسية » بل تقاليد دينية واجتماعية . فاليهود لا يؤلفون جنسا محددا وإنما مجتمع يشكل جماعة شبه قومية ذات أساس دينى قوى وتقاليد تاريخية خاصة . وانه لخطأ غير مشروع أن نتكلم عن « جنس يهودى » تماما كما لو تكلمنا عن جنس آرى" .

هذا عن الرأى الأول فى اليهود . أما الرأى الثانى فيمثله كون الذى يقبل تشكلهم بصفات السكان المحيطين لكنه يرى فيهم الى جانب ذلك آثار الأصل الفلسطينى العبرى القديم بخصائصه المتوسطة ، وبخاصة فى شكل الوجه الطويل وأبعاد أو حجم الرأس الصغير . ومن هذا المنطلق

يدير كل مناقشته على أساس أن اليهود اليوم فى بيئاتهم المختلفة ليسوا مجرد جماعات من أبناء تلك البيئات تحولوا الى اليهودية ، وإنما هم فى الأغلب الأعم يهود حقيقيون من أبناء الشتات الفلسطينى امتزجوا دمويا بأبناء تلك البيئات الأصليين : مثلا : يهود العراق يهود حقيقيون وليسوا عراقيين تهودوا ، يهود بخارى والتركستان ليسوا مجرد تاجيك أو سارت تهودوا بل أصلا يهود ولكن استعرضت رءوسهم بالاختلاط بهؤلاء ، ويهود وسط أوروبا ليسوا ببساطة أوروبيين تهودوا وانما يهود تأوربوا .. ويقدر كون - كمجرد تخمين بحت كما يعترف - أن نسبة عنصر البحر المتوسط الفلسطينى الأصلى فى يهود أوروبا الأشكناز قد تزيد على نصف جميع العناصر الداخلة فى تكوينهم ، وهى بذلك أهمها .

ومن هذا كله ينتهى الى ان اليهود "ليسوا مجرد كومة عشوائية Grob-dag توحد بينها رابطة مشتركة من الدين بلا تماسك بيولوجى أكثر مما لوحدات عفوية كمستمعى الراديو او عاملات

الحياكة" ! وقد يمكن أن نعد موقف هنتنجتون قريبا من موقف كون ، حيث يسمى اليهود - بلغته الخاصة - «مجموعة قربى Krrh» شأنهم فى ذلك شأن البيوريتان أو الماورى أو الاغريق (كذا) . غير اننا نرى فى هذه التشبيهات المتنافرة ما يعقد الصورة أكثر مما يبسطها ، ويكفى ان نتخذ من كون علما على الرأى ورمزا له .

اين تقع الحقيقة بين هذين الرايين - والفارق بينهما فارق كبير فى الدرجة يوشك ان يكون فارقا فى النوع ؟ هذا هو السؤال . المحقق أننا لا يمكن علميا أن نستبعد من بعض من يهود العالم نسبة ما من الأصل الفلسطينى القديم . ولكن من المحقق أيضا أن تقدير كون وتصويره يبالغ بعامة فى تلك النسبة . فالملاحظ أولا أن الفروق الجسمية التى يسجلها بين اليهود وجيرانهم ضئيلة غالبا وواهية جدا أحيانا . وثانيا وأهم من ذلك أنه مادامت الدماء الاجنبية الغريبة قد غزت اليهود وداخلتهم - حتى ولو كانوا من أصل فلسطينى قديم - الى الحد الذى يقربهم - على الأقل - من هؤلاء الجيران ، فقد ابتعدوا وانفصلوا تماما عن ذلك الأصل السحيق .

وليس من المتصور - أليس كذلك ؟- غير هذا بعد نحو ألفى سنة من التشتت والاختلاط ، لاسيما إذا تذكرنا - وهو اعتبار مهم للغاية - أن كل قوة يهود الشتات حين خرجت من فلسطين بعد هدم الهيكل الثانى لم تزد عن ٤٠ ألفا ! وهذا الرقم وحده يكفى ليوحى ، رغم كل قيود العزل والاضطهاد ، بأن يهود الشتات الاصلاء قد ذابوا وانصهروا وضاعوا فى محيط المهجر كقطرة فى بحر ، وأن يهود العالم اليوم فى سوادهم الأعظم هم اجانب متحولون اكثر منهم يهودا متجولين ..

ماذا يتبقى فيهم إذن من بنى إسرائيل التوراة أو من بنى إسرائيل التوراة فيهم ؟ إن من يمكن أن يعد منهم من نسل بنى إسرائيل التوراة حقا ومباشرة لا يزيدون على نسبة بالغة الضآلة الى اقصى حد . مثلا فى أواخر القرن الماضى يجد الانثروبولوجى المخضرم المعروف فيلكس فون لوشان Von Luschan أنه «من بين يهودنا المحدثين

نحو ٥٠٪ عراض رءوس ، ١١٪ ذوو بشرة بيضاء ، وما لا يزيد عن ٥٪ يتفقون مع ما عرفنا أنه النمط السامى القديم" . وهذا يتفق تماما مع ما تؤكده دراسة حديثة جدا قام بها فى العام الاخير فقط انثروبولوجى بريطانى هو جيمس فنتون على يهود إسرائيل توصل فيها الى أن ٩٥٪ من اليهود ليسوا من بنى إسرائيل التوراة ، وإنما هم أجانب متحولون أو مختلطون .

ولئن صح هذا ـ ولعله صحيح ، وهو بالتأكيد اقرب الى الصحة والمنطق من تخمينات كون ـ فمعناه أن الصلة الجنسية والجينية بين يهود اليوم ويهود التوراة منبتة وفاقدة تماما من الناحية العملية ، وانهم بالفعل أوروبيون سلاف او آريون اكثر منهم ساميين . وهذا يصدق على الاشكنازيم فى أوروبا ، وعلى امتدادهم الامريكى الذى زاد اختلاطه فى البوتقة الأمريكية ، أكثر منه على اية مجموعة أخرى من اليهود ، مع ملاحظة أنهم ـ الاشكنازيم ـ هم السواد الأعظم من يهود العالم عدديا .

والخلاصة الموضوعية ان يهود العالم اليوم مختلطون فى جملتهم اختلاطا بعد بهم عن أى اصول إسرائيلية فلسطينية قديمة حتى لم تعد هذه تمثل فى تكوينهم إلا قطرة فى محيط . وإذا كان ثمة تحفظ ما ، فهو أن هناك مراحل ودرجات من هذا التخليط ، فبعض المجتمعات اليهودية كيهود التركستان اقل تهجنا وتخلطا والبعض أكثر كالاشكنازيم . غير أن الحقيقة الحاسمة والفاصلة هى أن الأقل تخليطا إنما يمثلون عدديا نسبة بالغة الضآلة من مجموع اليهودية العالمية ، بينما أن المخلطين تماما والذين ابتعدوا جدا أو كلية عن الأصول الأولى يشكلون الأغلبية الساحقة منهم . ومن هنا فلا جناح علينا إذا نحن قررنا فى النهاية ان اليهود اليوم ليسوا من بنى إسرائيل ، وان هؤلاء شىء واولئك شىء آخر انثروبولوجيا ، والا رابطة بين الطرفين الا الدين والدين فقط .

افكار خاطئة

وتخريجا من هذا وترتيبا عليه ، تسقط على الفور عدة افكار ومعتقدات شائعة ومتفشية ولكن لا

ظل لها من الحقيقة فى نظر العلم الصحيح .
فأولا ، مادام اليهود لم يعودوا من الساميين فى
شىء ، فيمكننا هنا أن نرى الخطأ الشائع
الفاشى ، إن لم يكن المغالطة الكبرى العامدة ،
فى تسمية اضطهاد اليهود "بضد السامية" ،
فنحن فى الحقيقة ازاء "ضد اليهودية" ببساطة
وبلا تعقيد . وإذا كان الالمان يتكلمون عن ضد
السامية Anti Semitimus وكراهية اليهود
Judenhetze كمترادفين، ، فإن التعبير الآخر
أدنى الى الحقيقة العلمية من الأول ولا تفسير لهذه
التسمية الخاطئة أنها تعتمد على أسس أو مداورة
الإنجيل والتوراة التى تسبق بكثير التغير الجذرى
والاحلال والابدال المطلق الذى لحق دماء اليهود .
والاضطهاد النازى لليهود فى المانيا لم يكن فى
جوهره الا اضطهاد ألمان لألمان ، لا يقل معظمهم
عنهم فى الآرية والنوردية ، وإنما يختلفون فقط فى
الديانة وطريقة الحياة .

يسقط كذلك ببساطة وتلقائية اى دعوى قرابة

دم بين العرب واليهود : قد يكون يهود التوراة
والعرب أبناء عمومة - وإنما تاريخيا فحسب حين
بدأ الكل قبائل مختلفة من الساميين الشماليين
وحين كانت العبرية لغة تشتق من الأصول العليا
التى تفرعت عنها العربية ، وقد يكون من
الصحيح ، بل إنه لصحيح بالفعل ، أن اسماعيل
أبا العرب واسحق أبا اليهود أخوة غير أشقاء
وكلاهما ابنا إبراهيم - ولكن فى البداية فقط
تصدق هذه الاخوة على نسليهما ، أما بعد ذلك
فقد ذاب نسل أحدهما فى دماء غريبة ووصل
الذوبان الى حد الاحلال حتى أصبحنا ازاء قوم
غرباء لا علاقة لهم البتة باسحق فضلا عن
اسماعيل . ولا يمكن بعد أن اختفى يهود التوراة
كشبح أن يكون يهود أوروبا والعالم الجديد أقارب
العرب جنسيا أكثر من قرابة الأوروبيين
والأمريكيين للعرب ! وغير هذا - حتى لو قال به
ملوك العرب ابتداء من فيصل بن الحسين الى
فيصل آل سعود - ليس إلا من قبيل أوهام العوام
بل جهالات الملوك !

إن اليهود اليوم إنما هم أقارب الأوروبيين

والأمريكيين ، بل هم فى الاعم الاغلب بعض وجزء منهم وشريحة ، لحما ودما ، وأن اختلف الدين . ومن هنا فان اليهود فى أوروبا وامريكا ليسوا كما يدعون غرباء أو أجانب دخلاء يعيشون فى المنفى وتحت رحمة أصحاب البيت ، وإنما هم من صميم أصحاب البيت نسلا وسلالة ، لا يفرقهم عنهم سوى الدين . أما أين يمكن ان يكون اليهود غرباء فى منفى ودخلاء بلا جذور فذاك فى بيت العرب وحده ، فى فلسطين حيث لا يمكن لوجودهم الا أن يكون استعمارا واغتصابا بالقهر والابتزاز . وغير هذا قلب بشع لحقائق التاريخ انثروبولوجيا وغير انثروبولوجى .

وانطلاقا من هذا يسقط كذلك اى ادعاء سياسى للصهيونية فى "أرض الميعاد" . فبغض النظر عن ان القانون الدولى يتكفل بشجب وتفجير ادعاءاتهم على اى أساس تاريخى او دينى ، فان الانثروبولوجيا تبدد اى أساس جنسى قد يزعمون فى هذا الصدد . فمن ناحية ليس اليهود قومية ولا هم شعب أو أمة ، بل هم مجرد طائفة دينية تتألف

من اخلاط من كل الشعوب والقوميات والامم والأجناس . ومن ناحية أخرى فلا علاقة لهم جنسيا أو انثروبولوجيا بفلسطين ، وهم اجانب غرباء عنها دخلاء عليها مثلما يعد الاوروبيون او الامريكيون بالنسبة اليها . وهم حين يغتصبونها ليخلقوا منها إسرائيل الصهيونية ، فليست هذه عودة الابن القديم بعد رحلة طالت عبر الزمان والمكان ، وانما هى غزو الاجنبى الغريب بالاثم والعدوان .

وتداعيا وانطلاقا من هذا الانتهاء الاخير ، ينبغى ايضا وفى النهاية ان نرفع نغمة حذر او تحذير حول قضية ليست هى القضية الفلسطينية ولكنها تشبهها او بالاحرى تشبه بها ، ونعنى بذلك ما يسمى دعوة "الصهيونية السوداء" . فالاخوة الافريقيون فى صحوة نهضتهم الحديثة قد وجدوا ـ كارث من عصر الرقيق ـ قطاعا منهم خارج افريقيا فى العالم الجديد يعيش فى أدنى السلم الاجتماعى وتحت ضغوط التفرقة العنصرية الضارية . ومن ثم نادى بعضهم ـ جارفى والجارفية Garvey بالعودة الى افريقيا الام كحل

لمشكلتهم فى امريكا . وبغض النظر هنا عما لاقته الدعوة عمليا وفكريا من فشل او معارضة ، فقد كان أثيرا لدى أصحابها تشبيه الموقف بموقف الصهيونية : فجعلوا تهجير الرقيق الافريقى الى العالم الجديد هو الخروج الأسود Black Exodus والشتات الأفريقى "A.Diaspora" وجعلوا افريقيا الام هى "ارض الميعاد" و"الوطن القومى" ورؤيا العودة هى "الصهيونية السوداء" ..

والذى يعنينا هاهنا ليس الحكم على الدعوة أولها ، وإنما أن ننبه أصدقاءنا الافريقيين برفق الى خطورة وخطأ التشبيه . فإذا كان زنوج أمريكا هم فعلا وحقا من سلالة افريقيا ، فان الاغلبية الساحقة من يهود عالم اليوم ليسوا من بنى إسرائيل أو سلالة فلسطين فى شىء . وإذا كان لزنوج امريكا نظريا حق تاريخى وجنسى فى العودة الى افريقيا ، فليس لليهود مثل ذلك الحق بتاتا بالنسبة الى فلسطين . ومن ثم فلا مجال ولا

وجه للتشبيه بالصهيونية . بل إنه لتشبيه يسىء الى فكرة العودة الافريقية أكثر مما يفيدها .

والصهيونية من جانبها تتلقف هذا التشبيه لتتقرب به الى زنوج الولايات المتحدة والعالم الجديد وتستدر عطفهم المخدوع على حركتهم العادية الغاصبة . إنه إذن تشبيه غير موفق ، وهو غير صحيح الى ذلك وقبل ذلك ، ومن الخير لاصدقائنا الافريقيين وخير قضيتهم وقضيتنا معا ان يسقطوه والفكرة الخاطئة التى تكمن خلفه .

المصـــــــادر :

- W.Z Ripley, The Races of Europe, Lond., 1900.
- C.S Coon, The Races of Europe, N.Y., 1939.
- Julian Huxley, A.C. Haddon, A.M. Carrsaunders, We Europeans, Pelican, 1939.
- J. Deniker, Les Races et les Peuples, Paris, 1926.
- Egon E. Bergel, Urban Sociology, Mcgrew Hill, 1955.
- Ellsworth Huntington, Palestine and its Transformation, Boston, 1911.
- The Pulse of Progress, N.Y., 1926.
Mainsprings of Civilization, N.Y., 1945.
- C.S. Coon, Have the Jews a Racial Identity in Jews in : a Gentile World, ed. Graeber & Britt N.Y., 1942.
- Y.M. Goblet, Political Geography and the world Map, Lond., 1955.
- A.C.Haddon, The Races of Man, Cambridge, 1924.
- M.F. Ashley Montagu, Introduction to Physical Anthropology, Springfield, 1951.
- W alter Fitzgerald, The New Europe, Lond., 1946.
- Adolphe Landry, Traite de Demographie, Paris, 1949.
- W.F. Ogburn, M.F. Nimkoff, A. Handbook of Sociology, London., 1953.

- P. Sorokin, Contemporary Sociological Theories, N.Y. & Lond., 1926.
- George Adam Smith, Historical Geog. of the Holy Land, N.Y. 1932.

- نجلاء عز الدين : العالم العربى ، القاهرة (مترجم) .
- جمال حمدان : المدينة العربية، القاهرة ، ١٩٦٤ .

ملحق لتحديث كتاب د. جمال حمدان

تتسم كتابات الدكتور جمال حمدان بعمقها الفكرى وأطروحاتها ذات المقدرة التوليدية العالية .. ولذا فقيمتها الفكرية والمنهجية تظل باقية ، وان تغيرت بعض الحقائق والمعلومات . إذ تظل نماذجه التحليلية التفسيرية التصنيفية هى القيمة الأساسية التى تركها لنا وهى التى نتعلم منها كيف نفكر ونفسر ونصنف .

ومع هذا من المفيد لقارىء هذا الكتاب المرجع أن يعرف الصورة العامة لأعداد اليهود فى العالم ومسار هجراتهم حتى عام ١٩٩٥ ، وهكذا مايحاول أن يزوده هذا الملحق به ولنلاحظ انه رغم تحديث الأرقام فإن النموذج التصنيفى العام لم يتغير والذى ينطلق من رؤية الجماعات اليهودية باعتبارها جماعات بشرية يسرى عليها مايسرى على غيرها من قوانين ، أى أنها لاتشكل شعبا مختارا أو عصابة اجرامية .

تعداد الجماعات اليهودية وتوزعها في العالم وبعض المعالم السكانية فى الوقت الحاضر ١٩٩٢

Worldwide Number and Distrbution of the Jewish Communities and Some Demographic Features at the Present

يقدر عدد سكان العالم من اليهود طبقا لإحصاءات عام ١٩٨٧ بنحو ١٣ مليونا «١٢.٩٣٤.٦٠٠» وصل إلى ١٢.٩١٣.٨٠٠ عام ١٩٩٢ «حسبما ورد فى الكتاب السنوى الأمريكى اليهودى لعام ١٩٩٤» . وهو يقل قليلا عن عددهم فى عام ١٩٨٢ ، والبالغ ١٢.٩٨٨.٦٠٠ أو عددهم فى عام ١٩٨٤ وهو ١٢.٩٦٣.٣٠٠ «وهو ما يدل على أن يهود العالم قد وصلوا إلى نقطة الصفر فى النمو» وقد تناقص هذا العدد عن عددهم فى عام ١٩٦٧ حيث كان ١٣.٨٣٧.٥٠٠ أى أن عدد اليهود نقص بنحو المليون فى الفترة من عام ١٩٦٧ حتى عام ١٩٨٢ دون إبادة ومن خلال تناقص طبيعى ، والجماعات اليهودية موزعة فى الوقت الحاضر من الناحية الجغرافية فى كل أرجاء العالم على النحو التالى :

أوربا «بما فى ذلك روسيا الآسيوية والبلقان وتركيا»	١.٩٢٤.٢٠٠
اسيا «فلسطين المحتلة أساسا»	٤.٣٧٨.٦٠٠
أفريقيا (جنوب أفريقيا اساسا)	١.٠٦.٧٠٠
أمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية «الولايات المتحدة أساسا»	٦.٤٠٩.٧٠٠
استراليا ونيوزيلندا	٩٤.٦٠٠
المجموع	١٢.٩١٣.٨٠٠

وأكبر توسع جماعات يهودية هى :

الدولة	نسبتهم الى يهود العالم	عدد أعضاء الجماعة اليهودية
الولايات المتحدة	٪٤٣.٥	٥.٦٢٠.٠٠٠
إسرائيل	٪٣٢.٨	٤.٢٤٢.٥٠٠
فرنسا	٪٤.١	٥٣٠.٠٠٠
روسيا	٪٣.٢	٤١٥.٥٠٠
كندا	٪٢.٨	٣٥٦.٠٠٠
بريطانيا	٪٢.٣	٢٩٨.٠٠
أوكرانيا	٪٢.١	٢٧٦.٠٠٠
الارجنتين	٪١.٦	٢١١.٠٠٠
جنوب أفريقيا	٪٠.٨	١٠٠.٠٠٠

وإذا نظرنا الى توزع أعضاء الجماعات اليهودية من منظور التشكيلات الحضارية والسياسية ، فإن الصورة سوف تختلف تماما ، فلو استبعدنا سكان المستوطن الصهيونى ، فإن أعضاء الجماعات اليهودية يتركزون أساسا فى أمريكا الشمالية حيث توجد أغلبيتهم الساحقة التى تبلغ «٤٦.٢٤٪» وفى أوربا الغربية حيث تبلغ ١٤.٩٪ وروسيا وأوكرانيا حيث نسبتهم ٥.٣٪ أى أن ٦٩.٨٪ من يهود العالم باستثناء فلسطين المحتلة يوجدون فى أمريكا الشمالية وأوربا ، ويعيش معظمهم فى الوقت الحالى فى

البلدان الناطقة بالإنجليزية «الولايات المتحدة وكندا وإنجلترا واستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا» ولذا فإنه يمكننا أن نقول: إن اللغة التى يتحدث بها أعضاء الجماعات اليهودية هى الانجليزية وليس العبرية أو اليديشية .. ومن الملاحظ أن الجماعات اليهودية فى أوربا الشرقية والاتحاد السوفييتى وأوربا آخذة فى الذوبان وأن عددهم فى أمريكا اللاتينية آخذ فى التناقص السريع .. ولذا يمكننا التنبؤ بأن يهود العالم أو ما يقال له «الشعب اليهودى» سيصبح جزءا لايتجزأ من الشعب الأمريكى بعد أن كان جزءا لايتجزأ من التشكيل الاستيطانى الغربى ومن شعوب شرق أوربا ونلاحظ فى الجدول السابق الذى يبين أكبر تسع جماعات يهودية فى العالم أن ٩٣,٢٪ من يهود العالم يعيشون فى تسعة مراكز رئيسية بما فى ذلك الدولة الصهيونية ، وان ٧٦,٣٪ يعيشون فى دولتين اثنتين «الولايات المتحدة وإسرائيل» ونلاحظ أن البلاد التى يوجد فيها أعضاء الجماعات اليهودية تتمتع بمستوى معيشى مرتفع ودخول مرتفعة ، كما أنها تنتمى الى مايمكن تسميته بالتشكيل العرقى الأبيض ، ففى الأرجنتين ، حيث توجد أعلى نسبة من البيض فى أمريكا اللاتينية توجد أيضا أعلى نسبة من اليهود .

وهناك عنصر آخر يرتبط بالعنصر السابق وهو أن نسبة ١٥٪ من يهود العالم توجد فى أوربا ، وتوجد الأغلبية العظمى فى دول استيطانية : الولايات المتحدة وكندا اللتان تضمان ٥.٩٧٦.٠٠٠

«٤٦.٢٧٪ من يهود العالم» وإسرائيل التى تضم ٤.٢٤٢.٥٠٠ «٣٢.٨٥٪ من يهود العالم» . وجنوب أفريقيا التى تضم ١٠٠.٠٠٠ «٠.٨٪» والبرازيل والارجنتين وبقية دول أمريكا اللاتينية ٣٨٢.٠٠٠ «٢.٩٪» ويمكن أن نضيف كذلك استراليا ونيوزيلندا التى تضم ٩٤.٦٠٠ «٠.٧٪» أى أن الجماعات اليهودية مرتبطة بأوربا وبتجربتها الاستيطانية جغرافيا وتاريخيا ، إذ يوجد فى هذه البلاد ٩١٪ من يهود العالم ، وكذلك فان الدياسبورا اليهودية، أى انتشار اعضاء الجماعات فى أنحاء العالم ليست ، انتشارا عشوائيا ، وإنما هو انتشار يصاحب انتشار التشكيل الاستعمارى الغربى خصوصا فى جانبه الاستيطانى ، وبالتالى ، فإن اسرائيل لاتشكل استثناء من القاعدة بل هى جزء من نمط غربى عالمى ، وارتفاع الدخول ليس منفصلا تماما عن العنصر الاستيطانى اذ أن التجربة الغربية الاستيطانية كانت تهدف أساسا الى حل المشاكل الاقتصادية للمجتمعات الفازية ، وكانت إحدى أهم المشاكل هى الفائض البشرى . وقد كان المجتمع الغربى ينظر الى اليهود باعتبارهم مادة بشرية استيطانية نافعة فتحركوا أو تم تحريكهم داخل هذا الاطار .

وفيما يلى توزع أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم فى الوقت الحاضر حسب احصائيات ١٩٩٢ .

الامريكتان :

١ ـ الشمالية

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
كندا	٢٧,٧٥٥,٠٠٠	٣٥٦,٠٠٠	١٢.٨
الولايات المتحدة	٢٥٧,٨٤٠,٠٠٠	٥,٦٢٠,٠٠٠	٢١.٨
المجموع	٢٨٥,٥٩٥,٠٠٠	٥,٩٧٦,٠٠٠	٢٠.٩

٢ ـ الوسطى

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
الانتليز الهولندية	١٧٥,٠٠٠	٤٠٠	٢.٣
بنما	٢,٥٦٣,٠٠٠	٥,٠٠٠	٢.٠
بورتوريكو	٣,٦٢٦,٠٠٠	١,٥٠٠	٠.٤
جامايكا	٢,٤٩٥,٠٠٠	٣٠٠	٠.١
جزر البهاما	٢٦٨,٠٠٠	٣٠٠	١.١
جواتيمالا	١٠,٠٢٩,٠٠٠	٨٠٠	٠.١
الدومينكان	٧,٦٢١,٠٠٠	١٠٠	ـ
فيرجن ايلاند	١٠٧,٠٠٠	٣٠٠	٢.٨
كوبا	١٠,٧٠٩,٠٠٠	٧٠٠	٠.١
كوستاريكا	٣,٢٧٠,٠٠٠	٢,٠٠٠	٠.٦
المكسيك	٨٩,٩٩٨,٠٠٠	٤٠,٠٠٠	٠.٤
بلاد أخرى	٢٥,٣٣٠,٠٠٠	٣٠٠	ـ
المجموع	١٥٦,٢٨٩,٠٠٠	٥١,٧٠٠	٠.٣

٣ ـ الجنوبية

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
الارجنتين	٣٣,٤٨٧,٠٠٠	٢١١,٠٠٠	٦.٣
إكوادور	١١,٣١٠,٠٠٠	٩٠٠	٠.١
أوروجواى	٣,١٤٩,٠٠٠	٢٣,٨٠٠	٧.٦
باراجواى	٤,٦٤٣,٠٠٠	٩٠٠	٠.٢
البرازيل	١٥٦,٥٧٨,٠٠٠	١٠٠,٠٠٠	٠.٦
بوليفيا	٧,٧٠٥,٠٠٠	٧٠٠	٠.١
بيرو	٢٢,٩١٣,٠٠٠	٣,٠٠٠	٠.١
سورينام	٤٤٦,٠٠٠	٢٠٠	٠.٤
شيلى	١٣,٨١٣,٠٠٠	١٥,٠٠٠	١.١
فنزويلا	٢٠,٦١٨,٠٠٠	٢٠,٠٠٠	١.٠
كولومبيا	٣٣,٩٨٥,٠٠٠	٦,٥٠٠	٠.٢
المجموع	٣٠٨,٦٤٧,٠٠٠	٣٨٢,٠٠٠	١.٢
المجموع الكلى للأمريكتين	٧٥٠,٦٣١,٠٠٠	٦,٤٠٩,٧٠٠	٨.٥٣

استراليا ونيوزيلاندا :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
استراليا	١٧,٨٤٣,٠٠٠	٩٠,٠٠٠	٥.٠
نيوزيلاندا	٣,٤٨٧,٠٠٠	٤,٥٠٠	١.٣
بلاد أخرى	٦,٦١٧,٠٠٠	١٠٠	–
المجموع	٢٧,٩٤٧,٠٠٠	٩٤,٦٠٠	٣.٤

آسيا :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
إسرائيل	٥,١٩٥,٩٠٠	٤,٢٤٢,٥٠٠	٨١٦.٥

الدول الآسيوية فى الاتحاد السوفييتى «سابقا»

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
أذربيجان	٧,٢٠٠,٠٠٠	٢١,٠٠٠	٢.٩
أرمينيا	٣,٥٠٠,٠٠٠	٣٠٠	٠.١
أوزبكستان	٢١,٦٠٠,٠٠٠	٤٥,٢٠٠	٢.١
تركمانيا	٤,٠٠٠,٠٠٠	١,٩٠٠	٠.٥
جورجيا	٥,٥٠٠,٠٠٠	١٨,٠٠٠	٣.٣
طاجكستان	٥,٧٠٠,٠٠٠	٥,٠٠٠	٠.٩
كازخستان	١٧,٢٠٠,٠٠٠	١٤,٥٠٠	٠.٨
قريفيزيا	٤,٦٠٠,٠٠٠	٣,٧٠٠	٠.٨
المجموع	٦٩,٣٠٠,٠٠٠	١٠٩,٦٠٠	١.٦

بلاد آسيوية أخرى :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
إيران	٦٣.١٨٠.٠٠٠	١٦.٠٠٠	٠.٣
تايلاند	٥٦.٨٦٨.٠٠٠	٢٠٠	–
سنغافورة	٢.٧٩٨.٠٠٠	٣٠٠	٠.١
سوريا	١٣.٧٦٢.٠٠٠	١.٢٠٠	٠.١
العراق	١٩.٩١٨.٠٠٠	٢٠٠	–
الفلبين	٦٦.٥٤٣.٠٠٠	١٠٠	–
كوريا الجنوبية	٤٤.٥٠٨.٠٠٠	١٠٠	–
الهند	٨٩٦.٥٦٧.٠٠٠	٤.٥٠٠	–
هونج كونج	٥.٨٤٥.٠٠٠	١.٠٠٠	٠.٢
اليابان	١٢٤.٩٥٩.٠٠٠	١.٠٠٠	–
اليمن	١٢.٩٧٧.٠٠٠	١.٦٠٠	٠.١
بلاد أخرى	١.٩١٨.٥٠٦.١٠٠	٣٠٠	–
المجموع	٣.٢٢٦.٤٣١.١٠٠	٢٦.٥٠٠	–
المجموع الكلى للبلاد الآسيوية	٣.٣٠٠.٩٢٧.٠٠٠	٤.٣٧٨.٦٠٠	١.٣

أفريقيا :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
إثيوبيا	٥٤.٦٢٨.٠٠٠	١.٥٠٠	–
تونس	٨.٥٧٩.٠٠٠	٢.٠٠٠	٠.٢
الجزائر	١٩.٥٩٠.٠٠٠	٣٠٠	–
جنوب أفريقيا	٤٠.٧٧٤.٠٠٠	١٠٠.٠٠٠	٢.٥
زائير	٤١.١٦٦.٠٠٠	٤٠٠	–
زامبيا	٨.٨٨٥.٠٠٠	٣٠٠	–
زمبابوى	١٠.٨٩٨.٠٠٠	١.٠٠٠	٠.١
مصر	٥٦.٠٦٠.٠٠٠	٢٠٠	–
بلاد أخرى	٤٢٧.٩٩٠.٠٠٠	٢٠٠	–
المجموع	٦٦.٨٥٧.٠٠٠	١٠٦.٧٠٠	١.٦

أوروبا

الجماعة الأوروبية:

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
اسبانيا	٣٩.١٥٣.٠٠٠	١٢.٠٠٠	٠.٣
ألمانيا	٨٠.٦٠٦.٠٠٠	٥٠.٠٠٠	٠.٦
أيرلندا	٣.٤٨١.٠٠٠	١.٨٠٠	٠.٥
ايطاليا	٥٧.٨٢٦.٠٠٠	٣١.٠٠٠	٠.٥
البرتغال	٩.٨٧٠.٠٠٠	٣٠٠	–
بلجيكا	١٠.٠١٠.٠٠٠	٣١.٨٠٠	٣.٢
الدنمارك	٥.١٦٩.٠٠٠	٦.٤٠٠	١.٢
فرنسا	٥٧.٣٧٩.٠٠٠	٥٣٠.٠٠٠	٩.٢
لكسمبورج	٣٨٠.٠٠٠	٦٠٠	١.٦
المملكة المتحدة	٥٨.٠٣٩.٠٠٠	٢٩٨.٠٠٠	٥.١
هولندا	١٥.٣٧٠.٠٠٠	٢٥.٦٠٠	١.٧
اليونان	١٠.٢٠٨.٠٠٠	٤.٨٠٠	٠.٥
المجموع	٣٤٧.٣٩١.٠٠٠	٩٩٢.٣٠٠	٢.٩

باقي دول أوربا الغربية :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
جبل طارق	٣١.٠٠٠	٦٠٠	١٩.٤
السويد	٨.٦٩٢.٠٠٠	١٥.٠٠٠	١.٧
سويسرا	٦.٨٦٢.٠٠٠	١٩.٠٠٠	٢.٨
فنلندا	٥.٠٢٠.٠٠٠	١.٣٠٠	٠.٣
النرويج	٤.٣١٠.٠٠٠	١.٠٠٠	٠.٢
النمسا	٧.٨٠٥.٠٠٠	٧.٠٠٠	٠.٩
بلاد أخرى	٧٧١.٠٠٠	١٠٠.٠٠	٠.١
المجموع	٣٣.٤٩١.٠٠٠	٤٤.٠٠٠	١.٣

الدول الأوربية في الاتحاد السوفييتي «سابقا» :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
استونيا	١.٦٠٠.٠٠٠	٢.٤٠٠	٢.١
أوكرانيا	٥١.٩٠٠.٠٠٠	٢٧٦.٠٠٠	٥.٣
روسيا	١٤٩.٠٠٠.٠٠٠	٤١٥.٠٠٠	٢.٨
روسيا البيضاء	١٠.٣٠٠.٠٠٠	٤٦.٠٠٠	٤.٥
لاتفيا	٢.٦٠٠.٠٠٠	١٣.٥٠٠	٥.٢
ليتوانيا	٣.٨٠٠.٠٠٠	٦.٥٠٠	١.٧
مولدافيا	٤.٤٠٠.٠٠٠	١٩.٤٠٠	٤.٤
المجموع	٢٢٣.٦٠٠.٠٠٠	٧٧٩.٨٠٠	٣.٥

أوربا الشرقية :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
بلغاريا	٨.٩٢٦.٠٠٠	١.٩٠٠	٠.٢
البوسنة والهرسك	٤.٠٠٠.٠٠٠	٣٠٠	٠.١
بولندا	٣٨.٥١٨٠٠	٣.٦٠٠	٠.١
تريكا «بمافى ذلك المناطق الأسيوية»	٥٩.٥٧٧.٠٠٠	١٩.٥٠٠	٠.٣
تشيك	١٠.٣٠٠.٠٠٠	٣.٨٠٠	٠.٤
رومانيا	٢٣.٢٧٧.٠٠٠	١٦.٠٠٠	٠.٧
سلوفاكيا	٥.٣٠٠.٠٠٠	٣.٨٠٠	٠.٧
سلوفينيا	٢.٠٠٠.٠٠٠	١٠٠	—
كرواتيا	٤.٤٠٠.٠٠٠	١.٤٠٠	٠.٣
المجر	١٠.٤٩٣.٠٠٠	٥٦.٠٠٠	٥.٣
يوغسلافيا	٩.٨٠٠.٠٠٠	١.٧٠٠	٠.٢
المجموع	١٧٦.٦٩١.٠٠٠	١٠٨.١٠٠	٠.٦
المجموع الكلى لأوربا	٧٨١.١٧٣.٠٠٠	١.٩٢٤.٢٠٠	٢.٥

ويلاحظ أنه يوجد دولتان اثنتان «الولايات المتحدة وإسرائيل» تضمان الغالبية الساحقة ليهود العالم «٧٥٪» ولايزيد عدد اليهود عن نصف مليون إلا فى دولة واحدة «فرنسا» وينقص عن النصف مليون فى دولة أخرى «روسيا» وتوجد دولتان «جنوب أفريقيا والبرازيل» يزيد عدد اليهود فى كل منهما على مائة ألف .. وباستثناء المجر وفيها ٥٦ ألفا والمكسيك ويوجد فيها ٤٠ ألفا لاتوجد دولة واحدة أخرى يزيد فيها عدد اليهود على ٣٥ ألفا ففى بلچيكا يوجد ٣١.٨٠٠ وفى ايطاليا ٣١.٠٠٠ وفى أورُوجواى ٢٣.٨٠٠ وفى رومانيا ١٦.٠٠٠ .

ويلاحظ أن جميع الدول السابقة تنتمى أيضا الى التشكيل العرقى الأبيض أو التشكيل الاستيطانى ذى الجذور الغربية .. البيضاء .. والواقع أن كل هذا يدعم رأينا الخاص بأن اليهود لايوجدون فى العالم بأسره وإنما ضمن تشكيل محدد ، وأن وجودهم فى بعض الدول أقرب الى الغياب ولايمكن أخذه فى الاعتبار من الناحية الاحصائية ، كما هو الشأن مع معظم الأقليات الدينية والاثنية فى العالم .فلايمكن أن نتحدث عن الوجود اليهودى فى الهند حيث لايوجد بها إلا نحو ٤.٥٠٠ يهودى ، أو الوجود اليهودى فى اليونان حيث يوجد ٤.٨٠٠ يهودى ، أو بولندا وفيها ٣.٦٠٠ يهودى ، أو النرويج التى فيها ألف يهودى ، أو زائير التى فيها ٤٠٠ يهودى أو الفلبين وفيها ١٠٠ يهودى أو بورما حيث يوجد عشرون يهوديا وحسب .

وتشكل الجماعات اليهودية قلة سكانية بالنسبة الى سكان العالم ، وهم كذلك أقلية صغيرة قياساً إلى حجم السكان فى الدول التى يوجدون فيها . فأكبر تجمع يهودى فى العالم فى الولايات المتحدة لايشكل سوى ٢٫١٨٪ من مجموع السكان البالغ عددهم ٢٥٧٫٨٤٠٫٠٠٠ حسب إحصاءات عام ١٩٩٢ .. وثانى تجمع يهودى فى العالم كان يتركز فى الاتحاد السوفييتى «سابقا» وهو بدوره لايشكل سوى ١٫٠٧٪ من مجموع السكان البالغ عددهم ٢٦٧٫٥١٦٫٠٠٠ . أما فى كندا ، فإن النسبة هى ١٫٢٨٪ من مجموع السكان البالغ عددهم ٢٦٫٧٥٥٫٠٠٠ . وتقل النسبة فى البلاد الأوربية الأخرى ، فهم فى فرنسا مثلا لايشكلون سوى ٩٢٪ من مجموع السكان البالغ عددهم ٥٧٫٣٧٩٫٠٠٠ أما فى انجلترا فإنها ٠٫٥١٪ من مجموع السكان البالغ عددهم ٥٨٫٠٣٩٫٠٠٠ وفى روسيا ٠٫٢٨٪ من من مجموع ١٤٩٫٠٠٠٫٠٠٠ ، وفى أوكرانيا ٠٫٥٣٪ من مجموع ٥١٫٩٠٠٫٠٠٠ .

ولايشكل اليهود أغلبية إلا فى اسرائيل وحدها ، ومع هذا فإنهم يحسون باحساس الأقلية نظرا لوجودهم فى صورة مجتمع استيطانى منعزل داخل الكثافة السكانية العربية ولخوفهم الدائم من العرب الموجودين فى فلسطين ، وبعد ضم الضفة الغربية وقطاع غزة .. وتكاثر العرب فى مقابل تناقص الهجرة ، وتزايد النزوح بين المستوطنين ، وعقم الأنثى اليهودية فى إسرائيل ، فإن

العرب سيصبحون هم الأغلبية العددية لا النفسية وحسب ، وهذا مايسمى «مشكلة إسرائيل السكانية» .

ومن الظواهر التى تستحق الإشارة ، تركز اليهود فى العواصم والمدن الكبرى ، فالواقع أن أكثر من نصف مجموع يهود أمريكا اللاتينية «٢٠٠ ألف» يوجدون فى بوينس أيريس ، وأكثر من نصف يهود جنوب أفريقيا «٦٣ ألفا» يوجدون فى جوهانسبرج، وأكثر من نصف يهود فرنسا «٢٥٠ ألفا» فى باريس، وأكثر من نصف يهود إنجلترا «٢٠٠ ألف» يوجدون فى منطقة لندن الكبرى ، وأكثر من نصف يهود هولندا «١٥ ألفا» فى أمستردام ، وأكثر من نصف يهود كندا فى مونتريال «١٠٠ ألف» وتورنتو «١٧٥ ألفا» وثلث يهود روسيا «٢٠٠ ألف» يوجد فى موسكو . أما فى الولايات المتحدة فهناك خمس مدن تضم أكثر من نصف يهود الولايات المتحدة إذ تضم نيويورك «الكبرى» ٤٥٠٫٠٠٠ ولوس أنجلوس ٤٩٠٫٠٠٠ وفيلادلفيا ٢٥٤٫٠٠٠ وشيكاغو «الكبرى» ٢٤٨٫٠٠٠ وبوسطن ٢٠٨٫٠٠٠ وواشنطن «الكبرى» ١٦٥٫٠٠٠ وميامى ١٩٩٫٠٠٠ والواقع أن توزعهم على كل هذه المدن بدلا من تركزهم فى العاصمة هو انعكاس للتركيبة الفيدرالية للولايات المتحدة . وإذا كان نصف الجماعات اليهودية يتركز فى كثير من البلاد فى العاصمة ، فإن النصف الثانى يوجد موزعا على مدن كبرى أخرى ، أى أن الأغلبية العظمى من الجماعات اليهوية توجد فى مراكز حضرية . وهذا أمر متوقع

باعتبار أنهم عملوا كجماعة وظيفية وسيطة فى الحضارة الغربية ومهاجرون الى البلاد التى يوجدون فيها . والمهاجرون يتركزون عادة فى المدن حيث توجد فرص أكبر للعمل ، وحيث توجد مراكز التجارة والمال ولم يكن الحال مختلفا فى العالم العربى . فقد تركزت أغلبية يهود لبنان فى بيروت كما تركز يهود مصر فى القاهرة بحى المعادى وحى الظاهر وتتركز المعابد اليهودية بشكل ملحوظ فى العواصم ، فمثلا يوجد فى القاهرة والاسكندرية عدة معابد ، ويقع أحد معابد القاهرة فى شارع عدلى على مقربة من البنوك ومراكز التجارة . كما يوجد معبد يهودى فى الاسكندرية فى شارع النبى دانيال على مقربة أيضا من بنوك الاسكندرية وعلى بعد خطوات من الغرفة التجارية ومن المعروف أن ٩٨٪ من العاملين بالبورصة فى مصر كانوا من أعضاء الجماعة اليهودية . وفى تصورنا أن هذا الوضع هو نتيجة للاستعمار الغربى وللهجرة الاشكنازية الى العالم العربى فى أواخر القرن الماضى والتى وسمت معظم الجماعات اليهودية العربية فى بلاد المتوسط «مصر والجزائر والمغرب ولبنان وسوريا» بميسمها بحيث تحول أعضاء الجماعات الى جماعات وسيطة للاستعمار الغربى .. كما يلاحظ «مثلا» أن يهود اليمن الذين ظلوا بمنأى عن الهجرة الاشكنازية ، ظلوا محتفظين ببنائهم الطبقى القبلى وبوجودهم فى الجبال . أما فى العراق فإن يهود كردستان الذين ظلوا بمنأى عن هذه التحولات لم يستقروا فى المدن على خلاف بقية أعضاء الجماعة الذين تحولوا إلى جماعة وظيفية وسيطة وتركزوا فى العاصمة وفى أعمال التجارة والمال بالذات .

ولم يشذ سكان التجمع الاستيطانى الصهيونى عن هذا الاتجاه . ففى إسرائيل يتكدس ٧٥٪ من المواطنين فى المدن .. ويلاحظ أن عدد أعضاء الجماعات اليهودية لايزال آخذا فى التناقص وهو مايطلق عليه ظاهرة «موت الشعب اليهودى» .

وحينما وصلت الإحصائيات بتعداد اليهود فى العالم عام ١٩٩٥ وجدنا أن الصورة العامة لم تختلف كثيرا عنها عام ١٩٩٢ .

وفيما يلى بعض التغيرات الأساسية :

الدولة	عام ١٩٩٢	عام ١٩٩٥
الولايات المتحدة	٥.٦٢٠.٠٠٠	٥.٨٠٠.٠٠٠
إسرائيل	٤.٢٤٢.٥٠٠	٤.٤٢٠.٠٠٠
فرنسا	٥٣٠.٠٠٠	٦٠٠.٠٠٠
روسيا	٤١٥.٠٠٠	٦٠٠.٠٠٠
أوكرانيا	٢٧٦.٠٠٠	٤٤٦.٠٠٠
الارجنتين	٢١١.٠٠٠	٢٥٠.٠٠٠
جنوب أفريقيا	١٠٠.٠٠٠	١١٤.٠٠٠
المجر	٥٦.٠٠٠	٨٠.٠٠٠
مولدافيا	١٩.٤٠٠	٤٠.٠٠٠
روسيا البيضاء	٤٦.٠٠٠	٣٤.٠٠٠
أورجواى	٢٣.٨٠٠	٣٠.٠٠٠
إيران	١٦.٠٠٠	٢٥.٠٠٠
أذربيجان	١٢.٠٠٠	٢٥.٠٠٠

ويمكن القول أن التغيرات فى الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل لايعتد بها ، ولكن الزيادات فى البلاد الأخرى تحتاج إلى وقفة ، فزيادة ٧٠ ألفا فى فرنسا «أى بنسبة ١٣.٢٪» و ٤٠ ألفا فى الارجنتين «بنسبة ١٨.٤٨٪» و ٢٣ ألفا فى المجر «بنسبة ٤٢.٩٪» و ١٤ ألفا فى جنوب أفريقيا «بنسبة ١٤٪» وتسعة آلاف فى إيران «بنسبة ٥٦٪» ليس لها سبب واضح ، فالاتجاه العام فى هذه البلاد فى السنين السابقة كان نحو النقصان لا الزيادة ولعل الزيادات هنا راجعة لاختلاف النماذج الإحصائية بين المصدر الذى استخدمه الكتاب السنوى الأمريكى اليهودى «وهو من إصدار البعثة اليهودية الأمريكية» ومصدر تعداد عام ١٩٩٥ وهو تقرير أصدره المؤتمر اليهودى العالمى .

ولاندرى هل ينطبق نفس التفسير على الزيادة الملحوظة فى دول الاتحاد السوفييتى سابقا «دول الكومنولث المستقلة وغيرها من الدول» إذ نلاحظ أن يهود روسيا زادوا زيادة كبيرة ١٨٥ ألفا «حوالى ٤٤٪» وزاد يهود أوكرانيا ١٧٠ ألفا «حوالى ٦١٪» وزاد يهود مولدوفا ٢١ ألفا «أكثر من ١٠٦٪» بينما زاد يهود روسيا البيضاء ١٢ألفاً «أى بنسبة ٢٦٪» .

وهناك احتمال أن تكون قد بدأت حركة عودة من الدولة الصهيونية كما أن أعدادا كبيرة من يهود لاتفيا واستوانيا وليتوانيا والجمهوريات الإسلامية السابقة وطنوا فيها باعتبارهم

عنصرا روسيا استيطانيا ، ولعل أعداداً منهم بدأت هى الأخرى فى العودة ـ وهناك بطبيعة الحال مشكلة من هو اليهودى ومن يضم فى التعداد ومن يستبعد .

وعلى كل فإن هذه القضايا ليست جوهرية ولاتغير من الأنماط العامة التى درسناها .

هجرة أعضاء الجماعات اليهودية فى العصر الحديث

Migration of Memebers of the Jewosh Communities in Moden Times

تغير اتجاه هجرة أعضاء الجماعات اليهودية مع بداية عصر النهضة فى أوربا لثلاثة أسباب أساسية :

١ ـ شهد عصر النهضة البدايات الحقيقية للانقلاب التجارى الرأسمالى بما تبعه من اكتشافات جغرافية ومشاريع استعمارية غربية : اسبانية وبرتغالية ثم هولندية وانجليزية . وكانت اسبانيا والبرتغال قد طردتا اليهود من أراضيهما أما هولندا وانجلترا فقد فتحتا أبوابهما لهجرة اليهود نظرا لحاجتهما الى أيد عاملة ورءوس أموال وخبرات تجارية ، ثم تبعتهما فرنسا .. وقد أدى هذا الوضع الى تدفق المهاجرين اليهود الى هذه البلاد وإلى مستعمراتها فيما بعد .

٢ ـ كانت الدولة العثمانية قد بدأت تدخل مرحلة الجمود التى أدت الى سقوطها فى نهاية الأمر ، ولم تعد قادرة على استيعاب المزيد من اليهود .

٣ ـ وفى تلك المرحلة ، كان معظم يهود أوربا مركزين فى بولندا التى شهدت ثورة الزعيم الشعبى الأوكرانى بوجدان شميلنكى عام ١٦٤٨ والذى قاد ثورة الفلاحين الأوكرانيين ضد

الاحتلال البولندى ، وضد النبلاء البولنديين «الشلاختا» المستفيدين من هذا الاحتلال وضد عمال النبلاء وممثليهم من يهود الأرندا الذين كانوا يقومون بجمع الضرائب وتوقيع العقوبات على الفلاحين . وقد هزت هذه الثورة جذور الدولة البولندية على وجه الخصوص ثم تبع ذلك غزو السويد وروسيا لها .

وقد أدى تزامن هذه الأحداث «طرد اليهود السفارد من شبه جزيرة أيبريا، ثم اهتزاز الأساس الاقتصادى والسياسى لليهود الأشكناز فى بولندا مع فتح أبواب الهجرة الى أوربا الغربية ، ودخول الدولة العثمانية فى طور الجمود» الى تغيير مسار هجرة أعضاء الجماعات اليهودية فى أوربا ، وظهور النمط الحديث أى هجرة الهيود من البلاد المتخلفة فى شرق أوربا إلى البلاد المتقدمة فى وسطها وغربها وإلى العالم الجديد . والهجرة اليهودية فى العصر الحديث هى أساسا جزء من حركة الاستعمار الاستيطانى التى بدأت فى القرن السادس عشر ، خصوصا التشكيل الأنجلوساكسونى «بعد بداية قصيرة مع الاستعمار الاسبانى ثم الهولندى» وما الهجرة الصهيونية إلا تعبير عن هذا النمط العام . ومع هذا ظلت الولايات المتحدة هى نقطة الجاذبية الأساسية للهجرة اليهودية من البداية حتى الوقت الراهن للأسباب التالية :

١ ـ تشكل الولايات المتحدة أهم وأنجح تجربة استيطانية غربية . وقد اجتذبت ثم استوعبت أعدادا كبيرة من المهاجرين من أوربا بلغت أكثر من ٨٠٪ .

٢ ـ الولايات المتحدة دولة علمانية لم تعرف أية تقاليد أو حتى أية رموز دينية إلا لفترة وجيزة للغاية من تاريخها ، كما أنها نجحت فى إقامة مؤسسات علمانية لاستيعاب وصهر المهاجرين و«أمركتهم» وفتحت أمامهم فرصة الانتماء الثقافى الكامل لوطنهم الجديد مما زاد من جاذبيتها وذلك على عكس أمريكا اللاتينية التى احتفظت بكاثوليكيتها وبالتالى استبعدت البروتستانت واليهود .

٣ ـ كان اليهود يشكلون جماعة وظيفة مالية تعمل بالتجارة والمال ، وبالتالى لم تكن بينهم أعداد كبيرة من العمال أو الفلاحين، والمجتمع الأمريكى هو مجتمع الاقتصاد الحر الذى يشكل القطاع التجارى والمالى أكبر قطاعاته والذى سادت فيه القيم التجارية الموضوعية ومن ثم فهو مجتمع له جاذبية خاصة بالنسبة إلى المهاجر اليهودى .

وقد تنبأ المؤرخ الروسى اليهودى دبنوف بأن مسار الهجرة اليهودية سيكون الى الولايات المتحدة ، وطالب بأن يتم تقنين العملية وتنظيمها .

ويمكن القول بقدر من التبسيط غير المخل أن هجرة أعضاء الجماعات اليهودية تدور حول قطبين أساسيين هما : شرق أوربا «روسيا ـ بولندا» كقوة طاردة وكمصدر للمادة البشرية ، والولايات المتحدة كقوة جاذبة ، وقد كان النمط الأساسى القديم للهجرة اليهودية هو تحرك أعضاء الجماعات داخل أطر الإمبراطوريات

الكبرى «الفارسية أو الرومانية أو الإسلامية» أما فى العصر الحديث فقد كانت هناك إمبراطوريتان أو قوتان عظميان تحددان من خلال سياستهما حركة هجرة أعضاء الجماعة اليهودية ، وقد تطور الأمر بعض الشىء بعد ذلك فى منتصف القرن العشرين .

ولكن هناك مصادر أخرى ثانوية طاردة للمادة البشرية مثل أوربا الشرقية أو أمريكا اللاتينية أو جنوب أفريقيا أو بقايا يهود الشرق والعالم الإسلامى ، كما أن هناك مناطق جذب ثانوية أخرى مثل كندا واستراليا ونيوزيلندا وبعض بلاد أوربا إلا أن النمط الأساسى الذى اشرنا إليه ظل سائداً وتمثل اسرائيل نقطة مبهمة فهى مصدر طرد حيث يبلغ عدد النازحين منها بين ٧٠٠ ألف ومليون ، كما أنها مصدر جذب ليهود البلاد العربية والشرق حيث إنها تحقق حراكا اجتماعيا كما تمثل محطة انتقال لهؤلاء اليهود الذين لايمكنهم الوصول الى الولايات المتحدة أو أولئك الذين لاتوجد عندهم الكفاءات المطلوبة للعمل فيها .

ويمكن تقسيم هجرة أعضاء الجماعات اليهودية فى العصر الحديث الى المراحل التالية :

أ ـ المرحلة الأولى : ابتداء من القرن السادس عشر حتى بداية القرن التاسع عشر .

وهى مرحلة البدايات الأولى للثورة التجارية الرأسمالية الصناعية فى أوربا ، وهذه هى الفترة التى شهدت توطين السفارد

من يهود المارانو فى هولندا وفرنسا ، وانجلترا ، كما شهدت بدايات الهجرة الاستيطانية اليهودية الى العالم الجديد . وكانت الهجرة تتبع النمط التالى : تهاجر مجموعة صغيرة من السفارد «عادة من كبار المولين وعائلاتهم» تلحق بهم أعداد ضخمة من الاشكناز ، كما حدث فى أمستردام بعد استقلالها عن اسبانيا وكما حدث فى انجلترا وفرنسا وبعض مدن ألمانيا ، وقد زاد عدد أعضاء الجماعة اليهودية فى أمستردام من ٢٠٠ سفاردى فى عام ١٦٩٠ الى ٢٤٠٠ سفاردى و ٢١ ألف اشكنازى فى عام ١٧٩٥ . أما لندن ، فقد كان يوجد فيها فى عام ١٦٩٥ نحو ٤٥٨ سفارديا و ٢٠٣ من الاشكناز ، ومع حلول عام ١٧٢٠ زاد عدد الاشكناز على عدد السفارد وفى عام ١٨٠٠ كان يوجد ألفا سفاردى ، وحسب بين العشرين ألف يهودى . ولم يستوطن أى عدد يذكر من اليهود فى فلسطين فى تلك المرحلة .

ب ـ المرحلة الثانية : من القرن التاسع عشر حتى عام ١٨٨٠.

وهى المرحلة التى وقعت فيها الحرب النابليونية والاضطرابات السياسية التى أعقبتها الأمر الذى تسبب فى هجرة بعض الجماعات اليهودية من ألمانيا وبوهيميا والنمسا الى فرنسا وانجلترا والولايات المتحدة واستراليا وغيرها . ولم يزد عدد المهاجرين اليهود الى خارج القارة الأوربية على ٢٠٠,٠٠٠ ويمكن تفسير ذلك بعدة أسباب من بينها أن الانفجارة السكانية التى حدثت بين يهود اليديشية فى شرق أوربا ، والتى أدت الى تزايد

أعدادهم بين عامى ١٨٠٠ و ١٩٣٣ بنحو ستة أضعاف ، لم يكن قد ظهر أثرها بعد ، كما أنها وصلت الى ذروتها ، بعد عام ١٨٨٠، وفضلا عن ذلك كان معظم يهود العالم مركزين فى شرق أوربا وروسيا وبولندا التى كان قد تم ضمها الى روسيا ، ولم تكن معدلات العلمنة والتحديث قد ازدادت بينهم بعد ، مما كان يعنى أنهم لايزالون جماعة متماسكة تصعب على أعضائها الحركة ، كما كان كثير من اليهود لايزالون يلعبون دورهم الاقتصادى التقليدى كجماعة وظيفية . وحتى عندما تزايدت عمليات التحديث والعلمنة فى روسيا ، وتركت تلك العملية أثرها على الجماعة اليهودية التى بدأت تفقد شيئا من تماسكها وبدأ يختفى كثير من مؤسساتها التقليدية التى تربط بين الفرد والجماعة مثل الأسرة والدين فإن هذا لم يتسبب فى أى هجرة خارج أوربا إذ لم تكن محاولات التحديث فى الإمبراطورية الروسية قد كابدت من التعثر بعد ـ وقد كان الاقتصاد الروسى قادرا على استيعاب اليهود الذين كانوا يتزايدون ويتركون قراهم وأماكن إقامتهم الأصلية ، ولذا ، فقد كانت هجرة اليهود داخلية ، من المناطق الكثيفة سكانيا ، فى منطقة الاستيطان الى روسيا الجديدة على شواطىء البحر الأسود كما هاجرت أعداد صغيرة الى بعض الدول الأوربية والولايات المتحدة .

وشهدت هذه المرحلة هجرة يهود المناطق البولندية التى ضمتها ألمانيا «١٧٧٢ ـ ١٨١٥» وفى بروسيا بالذات ، كان يوجد فى عام

١٨٣٧ نحو ٣٦٤، ١٤٥ يهوديا ٧٠٪ منهم حوالى «١٥٢ ، ١٠١» كانوا فى المناطق البولندية ، أى أن أغلبية يهود بروسيا كانوا مركزين هناك . ولكن مع عام ١٨٧١ ، تناقص عددهم عن طريق الهجرة الى ألمانيا ذاتها ، وأصبحت نسبة اليهود فى المناطق البولندية ٨ . ٣١٪ ثم انخفضت فى عام ١٨٩٠ إلى ٨ . ٢٤٪ وإلى ٤ . ١٧٪ فى عام ١٩١٠ . وقد اتجه هؤلاء اليهود الى برلين التى ارتفع عدد اليهود فيها من ٤٨٩ . ٤٧ فى عام ١٨٧١ الى ١٤١ . ١٨١ فى عام ١٩٢٥ ، وقد ساهم هذا الارتفاع فى تغذية الدعاية العنصرية النازية بشأن تكاثر اليهود والخطر اليهودى ومحاولة سيطرة اليهود على كل شىء .

جـ ـ المرحلة الثالثة : من عام ١٨٨١ حتى عام ١٩٣٩ .

وهى مرحلة الهجرة الكبرى اليهودية وغير اليهودية ، والتى بدأت فى عام ١٨٨١ مع تعثر التحديث فى روسيا وتزايد العنصرية فى كل أوربا وانتهت فى عام ١٩٣٩ بصدور قوانين عام ١٩٢٤ ، التى حدث من هجرة يهود شرق أوربا ، ثم بالكساد الاقتصادى وإغلاق أبواب الهجرة من روسيا تماما .

ووفقاً لإحصائيات الموسوعة اليهودية ، بلغ عدد المهاجرين فى هذه الفترة أربعة ملايين ، فى حين يذهب آرثر روبين إلى أن العدد أكبر من ذلك ، فهو يرى أنه فى الفترة من عام ١٨٨١ إلى عام ١٩٢٠ هاجر نحو ٣٠٠٠ . ٩٧٥ . ٣ فإذا أضفنا إلى ذلك وفقا لليستشنكى الرقم ٥٠٧ . ٨٤٥ وهو عدد الذين هاجروا من عام

١٩٣١ الى عام ١٩٣٩ ، فإن العدد الكلى يصبح ٨٤٥ ٤٨٢ . ٤ ويجب أن نضيف إلى هذه الهجرة حركة اليهود داخل الامبراطوريات العظمى فى أوربا ، الامر الذى قد يصل بالعدد إلى خمسة ملايين وقد أخذت الحركة داخل الإمبراطورية النمساوية اتجاهها من الشرق «جاليشيا وبكوفينا وبوزنان» الى الغرب وحدث نفس الشىء فى ألمانيا ، أما فى روسيا فقد اتجهت الهجرة نحو الجنوب إلى أوديسا ومناطق البحر الاسود ، وكان عدد اليهود الذين انتقلوا فى هذه الفترة من بلد أوربى إلى آخر هو ٣٥٠ ألفا ، ويرى روبين أنهم ٤٩٠ ألفا .

كما شارك فى حركة الهجرة من القرية إلى المدينة ، فزاد عدد يهود فيينا «بلدة تيودور هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية» على سبيل المثال من ستة آلاف فى عام ١٨٥٧ إلى ٩٩ ألفا فى عام ١٨٩٠ وإلى ١٧٥ فى عام ١٩١٠ ، وهى زيادة تمت أساسا عن طريق الهجرة حيث أن معدلات الزيادة الطبيعية كانت آخذة آنذاك فى التناقص .

وربما يكون الدافع الاكبر وراء الهجرة فى هذه الفترة هو تعثر محاولات التحديث فى روسيا ثم توقفها تقريبا ، وهو ما انعكس فى شكل الاضطهاد الروسى القيصرى ضد جميع الاقليات من الإمبراطورية . لذلك هاجرت أعداد كبيرة من يهود الإمبراطورية الروسية إلى خارجها بحثا عن مجالات جديدة للحراك الاجتماعى وللحصول على الحقوق المدنية والسياسية ، وكانت الأغلبية العظمى

من المهاجرين اليهود من بين يهود اليديشية ، ويهود روسيا على وجه الخصوص حيث كانوا يشكلون ما بين ٧٠٪ و ٨٠٪ من جملة يهود العالم ، وقد كان عددهم نحو عشرة ملايين ، وهو مايعنى أن نصفهم تقريبا ، أى واحد من كل اثنين ، كان فى حالة حركة وهجرة وانتقال فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين ، وهذه نسبة عالية للغاية ولاشك أنها اسهمت فى تفتيت كثير من المؤسسات والروابط والأواصر ، ومع أن نسبة الهجرة بين يهود اليديشية كانت أعلى من نسبتها بين الإيطاليين فإنها كانت أقل من نسبتها بين الأيرلنديين وقد كان عدد الأيرلنديين فى عام ١٨٣٠ ثمانية ملايين يشكلون نصف سكان انجلترا ، وقد هاجر منهم أربعة ملايين بين عامى ١٨٣٠ ، ١٩٠٠ .

وهاجر معظم اليهود فى الفترة من عام ١٨٨١ ، إلى عام ١٩١٤ ، خصوصا الأربعة عشر عاما الأخيرة منها . وتذكر الموسوعة اليهودية أن عدد المهاجرين بلغ ٢.٧٥٠.٠٠٠ فإذا انقصنا من هذا العدد حوالى ٢٥٠ ألفا هاجروا داخل أوربا ، وذلك على اعتبار أن عدد المهاجرين فى الفترة من ١٨٨١ حتى ١٩٣٥ هو حوالى ٤٩٠ ألفا ، يكون عدد المهاجرين الى خارج القارة هو ٢.٥٥٠.٠٠٠ بمعدل هجرة سنوية تصل إلى ١٣٥ ألفا وتعد سنة الذروة هى ١٩٠٥ ـ ١٩٠٦ حيث هاجر ما بين ٢٠٠ و٢٥٠ ألفا فى ذلك العام وحده . لكن الهجرة توقفت فى أثناء

الحرب . وعند فتحها فى عام ١٩٠٧ تدفق السيل مرة أخرى إذ هاجر فى ذلك العام وحده ١٤١ ألفا .. ثم صدر أول قانون لتحديد الهجرة فى العام التالى ، الأمر الذى أدى إلى تغيير الصورة .

وإذا كانت روسيا هى نقطة الطرد الكبرى فقد كانت الولايات المتحدة نقطة الجذب الكبرى فى أواخر القرن التاسع عشر ، وهى الفترة التى أحرزت فيها الرأسمالية الأمريكية تقدمها الضخم بعد أن هزمت الجنوب وفتحت أسواقه ، وفى هذه الفترة ، بدأت الرأسمالية الأمريكية تجربتها الإمبريالية فى أمريكا اللاتينية والفلبين حيث كانت فى حاجة ماسة الى الأيدى العاملة التى لم يكن من المكن تجنيدها من خلال الزيادة الطبيعية وقد استوعبت الولايات المتحدة بنحو ٨٥٪ من المهاجرين اليهود بل واستوعبت نفس النسبة تقريبا من جملة المهاجرين فى العالم . ولاتوجد سجلات بأعداد المهاجرين اليهود إلى الولايات المتحدة إلا ابتداء من عام ١٨٩٩ .

وقد هاجر من روسيا فى خلال ستة عشر عاما «١٨٩٩ ـ ١٩٢٤» نحو مليون ونصف المليون يهودى . وفيمايلى جدول بأعداد اليهود الذين هاجروا الى الولايات المتحدة من روسيا وغيرها فى الفترة من عام ١٨٩٩ إلى عام ١٩١٤ :

السنة	عدد المهاجرين	السنة	عدد المهاجرين
١٨٩٩	٣٧.٤١٥	١٩٠٧	١٤٩.١٨٢
١٩٠٠	٦٠.٧٦٤	١٩٠٨	١٠٣.٣٨٧
١٩٠١	٨٥.٩٨	١٩٠٩	٥٧.٥٥١
١٩٠٢	٥٧.٦٨٨	١٩١٠	٨٤.٢٦٠
١٩٠٣	٧٦.٢٠٣	١٩١١	٩١.٢٢٣
١٩٠٤	١٠٦.٢٣٦	١٩١٢	٨٠.٥٩٥
١٩٠٥	١٢٩.٩٠٠	١٩١٣	١٠١.٣٣٠
١٩٠٦	١٥٣.٧٤٨	١٩١٤	١٣٨.٠٥١

ليكون إجمالى عدد المهاجرين هو ١.٥١٢.٦٣١ .

ويعد عام ١٩٠٦ عام الذروة بالنسبة الى الهجرة الى الولايات المتحدة ويبلغ متوسط عدد المهاجرين سنويا ٩٣ ألفا وقد استقر كل هؤلاء المهاجرين فى الولايات المتحدة بشكل دائم ، ولم يهاجر منهم سوى نسبة ضئيلة تبلغ ٨٪ فى مقابل ٣٠.٧٦٪ من بقية الجماعات المهاجرة ، وكانت نسبة الأيرلنديين العائدين أقل إذ كانت لاتزيد على ٧٪ وكان المهاجر اليهودى يصل الى الولايات المتحدة ولديه النية فى الاستقرار الدائم ، وليس ادخال بعض الامور ثم العودة الى الوطن الأم ، ومن ثم فقد كان يحضر معه أسرته ، وكانت توجد نسبة عالية من النساء والأطفال فكانت نحو ٤٤٪ من جملة المهاجرين اليهود من الاناث فى مقابل ٣١.٧٪

بالنسبة الى الجماعات المهاجرة الأخرى . وكان ٢٤٪ من المهاجرين اليهود أطفالا تحت سن الثالثة عشرة أما فى الجماعات الأخرى فكانت النسبة ١٢.٤٪ وكان يوجد بين المهاجرين اليهود نسبة عالية من العمال الصناعيين تصل الى ٦٦٪ من الأجراء ، على عكس الإيطاليين، والأيرلنديين الذين كانوا من أصول فلاحية ، وبحسب إحصائيات الهجرة الأمريكية «١٨٩٩ ـ ١٩١٤» كان المهاجرون اليهود يشكلون ٣١٪ من جملة العمال الصناعيين ، وكانوا يشكلون أحيانا الأغلبية المطلقة فى بعض الفروع مثل صناعة الملابس .. وكان عدد العمال الزراعيين بين اليهود هو ٢.٦ مقابل ٢٨.١٪ بالنسبة الى جملة المهاجرين وكان عدد العاملين فى صناعة الملابس ٣٩.٦٪ وفى الصناعات الأخرى ٢٦٪ «أى ٦٥.٦٪ من الأجراء» فى مقابل ١٧.٨٪ بين غير اليهود . كما أن ٩.٢٪ من المهاجرين اليهود كانوا يعملون فى التجارة والنقل مقابل ٦.٧٪ من جملة المهاجرين وقد ساهم ذلك فى سرعة اندماجهم فى المجتمع وتحقيقهم حراكا اجتماعيا أعلى مماحققته كثير من جماعات المهاجرين الأخرى ، وهذا هو الذى ساهم فى نهاية الأمر فى «أمركتهم» الكاملة وفى تركزهم فى صناعات بعينها دون غيرها . وكان التركيب الاثنى للمهاجرين اليهود فى خلال الفترة بين عامى ١٨٩٩ و ١٩١٤ كما يلى حسب بلد الأصل:

روسيا	٧١.٧٪	بريطانيا العظمى	٤.٠٪
الإمبراطورية النمساوية والمجرية	١٦.٢٪	كندا	١.٢٪
		ألمانيا	٠.٧٪
رومانيا	٤.٢٪	بلاد أخرى	٢.٠٪

ولكن معظم اليهود الذين جاءوا من خارج روسيا هم من يهود اليديشية أيضا . وقد توقفت الهجرة فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، ولكنها فتحت أبوابها مرة أخرى فى عام ١٩١٤ ، وكان عدد المهاجرين فى البداية ضئيلاً ثم اخذ فى الازدياد الى أن وصل الى الذروة فى عام ١٩٢١ ثم انخفض فى أعوام ١٩٢٢ و ١٩٢٣ و ١٩٢٤ بسبب نظام النصاب ، وفيمايلى بيان بأعداد المهاجرين :

السنة	عدد المهاجرين	السنة	عدد المهاجرين
١٩١٥	٢٦.٤٩٧	١٩٢٠	١٤.٢٩٢
١٩١٦	١٥.١٠٨	١٩٢١	١١٩.٠٣٦
١٩١٧	١٧.٣٤٢	١٩٢٢	٥٣.٥٢٤
١٩١٨	٣.٧٦٢	١٩٢٣	٤٩.٧١٩
١٩١٩	٣.٠٥٥	١٩٢٤	٤٩.٩٨٩

ليكون إجمالى عدد المهاجرين هو ٣٥٢.٣٢٤ .

ولنا أن نلاحظ أن هذه الفترة الثانية هى فترة ظهور

الصهيونية ونشاطها أيضا . ولابد أن ندرك أن حركة اعضاء الجماعات اليهودية الضخمة كانت مصدر قلق الدول الغربية ، لخوفها على أمنها الداخلى ، وليهود الغرب المندمجين ، الذين كان وصول يهود الشرق يهدد مكانتهم الاجتماعية .

وينبع تأييد الدول الغربية وأثرياء اليهود المندمجين للمشروع الصهيونى من مخاوفهم هذه . ومن هنا كان تبنيهم لما نسميه «الصهيونية التوطنية» ويمكن أن نضرب مثلا علي ذلك بانجلترا التى اتجه اليها نحو ٢١٠ آلاف من المهاجرين اليهود فى الفترة من عام ١٨٨١ إلى عام ١٩٢٥ . وقد كان لوصولهم أثره فى إثارة قلق السلطات البريطانية . وظهرت المحاولات الرامية إلى تحويل تيار الهجرة اليهودية بعيداً عن إنجلترا ابتداءً بمشروع شرق افريقيا لإنشاء دولة صهيونية هناك ، مروراً بقانون الأجانب فى عام ١٩٠٦ للحد من دخول اليهود إلى إنجلترا (وهو المشروع الذى كان بلفور من أكبر المدافعين عنه» ، وانتهاء بوعد بلفور الذى حول فلسطين إلى أرض يلقى فيها الفائض البشرى اليهودى - كما كان يطلق على المهاجرين اليهود آنذاك .

ولم يتجه إلى ألمانيا فى نفس الفترة سوى مائة ألف يهودى ، ولكن هذالايتضمن اليهود الذين هاجروا من المقاطعات البولندية وهم من يهود اليديشية غيرالمندمجين وبالتالى ، قام النازيون بالدعاية ضد اليهود وبث السموم عن خطر التكاثر اليهودى والهيمنة اليهودية فى وقت كانت أعداد اليهود آخذة فى التناقص

الفعلى ، وإذا كان بلفور قد حل المسألة اليهودية فى انجلترا بالتخلص من اليهود عن طريق إرسالهم إلى فلسطين ، فإن هذا الحل لم يكن متاحاً لهتلر لعدم وجود مستعمرات لدى ألمانيا ، ولهذا تخلص منهم بإبادتهم .

ونلاحظ أن عدد المهاجرين إلى فلسطين كان فى بداية الفترة ١.٨٠٦ ، وبلغ ٨.١٧٥ فى عام ١٩٢٣ ، أى بعد فتح أبواب الهجرة وإنشاء المؤسسات الصهيونية الاستيطانية ، ثم قفز العدد إلى ١٣.٨٩٢ فى عام ١٩٢٤ ، وشهدت الفترة من عام ١٩٢٥ إلى عام ١٩٣٣ احتدام الأزمة الاقتصادية الرأسمالية العالمية ، وهو أدى إلى خوف كثير من الدول من الأيدى العاملة المهاجرة لأنها قد تفاقم من ظروف البطالة فيها ، فأخذت الدول تغلق أبواب الهجرة وتسمح بدخول المهاجرين بمقدار ماتسمح به مقدرتها الاستيعابية، ومن هذه البلاد كندا والأرجنتين والبرازيل وجنوب أفريقيا واستراليا ، وقد أدى تصاعد المقاومة العربية فى فلسطين إلى الحد من الهجرة الاستيطانية ، ولكن فلسطين ظلت مع هذا مفتوحة الأبواب أمام الهجرة ، ولعل أكبر مثل على محاولة الدول الغربية للحد من الهجرة الأجنبية هو الولايات المتحدة التى أصدرت أولاً قانون النصاب فى عام ١٩٢٣ وأعقبته بقانون جونسون فى عام ١٩٢٤ ، حيث لم يكن يسمح - بحسب هذا القانون - إلا بهجرة ما يساوى نسبة ٢٪ من عدد أعضاء كل جماعة قومية تعيش فى الولايات المتحدة وفق إحصاء عام ١٨٩٠

وقد عرفت المجموعة القومية بنسبتها إلى البلد الأم وليس بنسبتها إلى الانتماء الدينى أو الإثنى . وكان العدد المسموح له بالهجرة من شرق أوربا وروسيا هو ١٠.٣٤١ فى مقابل نحو ٥٠ ألفاً فى عام ١٩٢٤، و١٥٣.٧٤٨ فى عام ١٩٠٦ وكانت أعداد المهاجرين فى تلك الفترة كما يلى :

السنة	عدد المهاجرين	السنة	عدد المهاجرين
١٩٢٥	١٠.٢٩٢	١٩٣٠	١١.٥٢٦
١٩٢٦	١٠.٢٦٨	١٩٣١	١١٩.٦٩٢
١٩٢٧	١١.٤٨٣	١٩٣٢	٢.٧٧٥
١٩٢٨	١١.٦٣٩	١٩٣٣	٢.٣٧٢
١٩٢٩	١٢.٤٧٩		

أى أن الهجرة بلغت الحد الأقصى المسموح به حتى عام ١٩٣٠ وهكذا فبعد أن كانت الولايات المتحدة تستوعب ٨٥٪ من جملة المهاجرين اليهود فى الفترة من عام ١٨٨١ إلى عام ١٩١٤ ، انخفضت النسبة إلى ٢٥٪ فى الفترة من عام ١٩٢٦ إلى ١٩٣٠ ، وقد أغلقت كثير من البلاد أبوابها . وكما يقول روبين ، أصبحت معظم البلاد مغلقة أمام المهاجرين فى عام ١٩٣٣ ، ولم يبق أمامهم سوى فلسطين (المستعمرة) ، بمعنى أن الدول الغربية خلقت صهيونية بنيوية أى بيئة قانونية وظروفاً موضوعية تفرض

على اليهود الهجرة إلى فلسطين شاءوا أم أبوا . وبالفعل ، قفز عدد المهاجرين الاستيطانيين من ٤٠٠٠ فى عام ١٩٣١ إلى ١٢,٥٥٣ فى عام ١٩٣٢ وإلى ٣٧,٣٣٧ فى عام ١٩٣٣ ولذا يمكننا القول إن عنصر الطرد من الولايات المتحدة وليس الجذب إلى أرض الميعاد هو الذى حدد مسار الهجرة ومع هذا يلاحظ أنه فى الفترة من عام ١٩٢٦ إلى عام ١٩٣٠ ، حيث كانت أبواب أمريكا اللاتينية أكثر انفتاحاً ، هاجر إليها ٧٢,٣٨٧ من مجموع المهاجرين اليهود البالغ عددهم ١٧٢,٩٠٨ (أى ٤٢٪) ولم يهاجر فى نفس الفترة سوى ١٠,١٧٩ إلى فلسطين .

وعلى الرغم من تباكى الدول الغربية على مصير اليهود ، فإن معظمها أوصدت أبوابها دونهم . كما أن المنظمات الصهيونية كانت تؤيد هذا الموقف انطلاقا من العقيدة الصهيونية التى تدعو إلى توطين اليهود فى فلسطين – وفلسطين فقط ومن هنا ، كانت الجهود المكثفة للصهاينة من أجل إفشال مؤتمر إفيان لحل مشكلة اللاجئين والمهاجرين وفض أية عروض لتوطين اليهود خارج فلسطين لخلق ماسميناه «الصهيونية البنيوية» وفى الفترة من عام ١٩٣٣ حتى عام ١٩٤٨ ، والتى يمكن أن تسمى المرحلة النازية ، بلغ عدد المهاجرين من ألمانيا والبلاد التى يهيمن عليها النازيون ، والمهاجرون من كل أوربا ٥٤٠ ألفاً ، خلاف عشرات الألوف من اليهود الذين هجرهم الاتحاد السوفيتى إبان الحرب لإنقاذهم ،

وعشرات الألوف الذين لجأوا إلى الاتحاد السوفييتى فراراً من النازى وقد هاجر ٢٥٠ ألفاً (أى ٤٦٪) منهم إلى فلسطين بسبب سياسة إغلاق الأبواب ، وهاجر الباقون وهم ٢٩٠ ألفاً إلى بلاد أخرى أهمها الولايات المتحدة التى هاجر إليها ١١٠ آلاف (أى ٢٠٪) وهاجر فى الفترة من عام ١٩٤٠ إلى عام ١٩٤٨ نحو ٣٠٠ ألف يهودى ، منهم ١٢٠ ألفاً (أى ٤٠٪) إلى فلسطين والباقون ، وهم ١٨٠ ألفاً (أى ٦٠٪) .هاجروا إلى بلاد أخرى أهمها الولايات المتحدة التى هاجر إليها ١٢٥ ألفاً (أى ٤٢٪) وهكذا أصبحت الولايات المتحدة ، مرة أخرى ، بلد الجذب الأكثر ، حتى فى أثناء سنى الحرب والإبادة النازية ويمكننا أن نقول أن المستوطن الصهيونى لم يشكل ملجأ ليهود أوربا ، فمن مجموع ٧٥٠ألف مهاجر (ويمكن أن نضيف إليهم مئات الألوف من المهاجرين إلى الاتحاد السوفييتى) لم يهاجر إلى فلسطين سوى ٢٧٠ ألفاً أى أنه على الرغم من شراسة الصهيونية البنيوية ولا إنسانيتها ، فإن مسار الهجرة لم يتجه إلى فلسطين .

وفيما يلى جدول بعدد المهاجرين ونسبهم المئوية – حسب الموسوعة اليهودية – بين عامى ١٨٨١ و١٩٤٨ .

جهة الهجرة	عدد المهاجرين ١٨٨١-١٩١٤	النسبة ٪	عدد المهاجرين ١٩١٥ - ١٩٤٨	النسبة ٪
الولايات المتحدة	٢,٠٤٠,٠٠٠	٪٨٥	٦٥٠,٠٠٠	٪٤١
كندا	١٠٥,٠٠٠	٪٤	٦٠,٠٠٠	٪٤
الأرجنتين	١١٣,٠٠٠	٪٥	١١٥,٠٠٠	٪٧
بقية أمريكا اللاتينية	١٤,٠٠٠	٪٠,٦	١٤٠,٠٠٠	٪٩
جنوب أفريقيا	٤٣,٠٠٠	٪٢	٢٥,٠٠٠	٪١,٦
فلسطين	٧٠,٠٠٠	٪٣	٤٨٥,٠٠٠	٪٣٠
بلاد أخرى	١٥,٠٠٠	٪٠,٦	١٢٥,٠٠٠	٪٨
المجموع	٢,٤٠٠,٠٠٠		١,٦٠٠,٠٠٠	

والجدول هنا يبين أن الولايات المتحدة هى بلد الهجرة بلا منازع أو منافس وتشغل الأرجنتين وكندا المرتبتين الثانية والثالثة، ولا تأتى فلسطين إلا فى المرتبة الثالثة – وهى مرتبة ثالثة تجاوزاً لأن مجموع عدد المهاجرين إليها أقل بكثير من مجموع عدد المهاجرين إلى بلاد الاستيطان الأخرى . أما فى الفترة من ١٩١٥ إلى ١٩٤٨ ، فإن الولايات المتحدة كانت لاتزال تشغل المرتبة

الأولى وكانت فلسطين تشغل مرتبة ثانية قريبة من المرتبة الأولى ومن الطريف أن مجموع عدد المهاجرين إلى أمريكا اللاتينية وكندا فى خلال الفترتين هو تقريباً نفس عدد المهاجرين إلى فلسطين – ولكن أحد المصادر الأخرى يذهب إلى أن عدد المهاجرين إلى أمريكا اللاتينية وحدها ، من عام ١٨٨١ حتى عام ١٩٤٨ ، يعادل مجموع عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين فى ذات الفترة وإذا استبعدنا الولايات المتحدة ، وعقدنا مقارنة بين عدد المهاجرين إلى فلسطين من جهة وبقية بلاد العالم من جهة أخرى ، لوجدنا أن عدد المهاجرين إلى فلسطين هو ٥٥٥ ألفاً فى مقابل ٦٨٢ ألفاً هاجروا إلى بقية بلاد العالم ، أى أن عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين أقل من عدد المهاجرين إلى بقية البلاد وحتى فى الفترة من عام ١٩١٥ إلى عام ١٩٤٨ ، وهى الفترة التى شهدت قمة النشاط الصهيونى ، حيث فتحت حكومة الانتداب أبواب فلسطين للهجرة الاستيطانية ، وحيث أغلقت بلاد العالم الحر أبوابها دون المهاجرين اليهود وغير اليهود ، كان عدد المهاجرين إلى فلسطين ٤٨٥ ألفاً فى مقابل ٤٦٥ ألفاً للبلاد الأخرى فيما عدا الولايات المتحدة . وكل هذه الإحصائيات تبين أن فلسطين ليست نقطة الجذب اليهودى كما تدعى الأدبيات الصهيونية وأن الحركة الصهيونية لم تحرز نجاحاً فيما كانت تهدف إليه ويلاحظ أن كافة البلاد التى يهاجر إليها اليهود هى بلاد شهدت تجارب استعمارية استيطانية أسسها الرجل الأبيض ومن ثم ، فإن الهجرة اليهودية

ليست ظاهرة يهودية بمقدار ماهى جزء من الظاهرة الاستعمارية الاستيطانية الغربية .

د) المرحلة الرابعة : منذ عام ١٩٤٨ حتى الوقت الحاضر .

وبانتهاء الأربعينيات ، أصبحت الكتلة اليهودية الكبرى ، موجودة فى الولايات المتحدة ، مع وجود كتلة أخرى فى أوربا آخذة فى التناقص ، ومع وجود أقليات متناثرة فى أنحاء العالم وقد ظهرت الكتلة اليهودية الاستيطانية فى فلسطين ، فأصبح هناك قضبان أساسيان يتنازعان هجرة اليهود هما الولايات المتحدة وإسرائيل (فلسطين) ، وكلاهما بلد استيطانى يمكن للمهاجر اليهودى أن يحقق فيه الحراك الاجتماعى الذى فشل فى تحقيقه فى بلده ومع هذا ، تشكل دول أخرى مثل استراليا وفرنسا جاذبية خاصة بالنسبة إلى بعض المهاجرين اليهود .

ويمكن أن نضيف بعداً آخر يساعد فى توجه أعضاء الجماعات اليهودية إلى الولايات المتحدة وإسرائيل (فلسطين) ألا وهو الميراث الاقتصادى للجماعات اليهودية كجماعة وظيفية تركز أعضاؤها فى قطاعات المال والتجارة . والواقع أن هذا يعنى تأثرهم السلبى بالثورات القومية أو الاشتراكية التى تستولى على هذه القطاعات فتؤممها ، أو تحاول صبغها بصبغة قومية ، أو تتدخل فيها بما يقلل من فرص الحراك أمام أعضاء الجماعة اليهودية . ويمكننا فى واقع الأمر أن نفسر حركة هجرة أعضاء الجماعات اليهودية فى العصر الحديث بكل تناقضاتها من منظور هذين العنصرين

(الحراك الاجتماعى وميراث الجماعة الوظيفية الوسيطة) باعتبارها هجرة إلى بلاد الوفرة والاقتصاد الحر والاستقرار السياسى من بلاد الاقتصاد الاشتراكى والفقر والثورات القومية الاشتراكية .

١ - فمثلا يمكن تفسير الهجرة من الاتحاد السوفيتى على أنها تعبير عن ضيق يهود الاتحاد السوفيتى بالنظام الاشتراكى الذى يضيق الخناق على القطاع التجارى وفى نفس الإطار يمكن تفسير الظاهرة التى تسمى فى المصطلح الصهيونى «التساقط» أى خروج اليهود من الاتحاد السوفيتى بزعم الهجرة إلى إسرائيل ثم تغيير الاتجاه والذهاب إلى بلد آخر هو الولايات المتحدة فى العادة . فهم يفضلون الهجرة إلى الولايات المتحدة حيث يمكنهم تحقيق معدلات عالية من الحراك الاجتماعى ، فى حين لاتشكل إسرائيل أية جاذبية بالنسبة إليهم وقد هاجر يهود جورجيا بأعداد كبيرة إلى إسرائيل فحققت مثل هذه الهجرة لهم قسطا من الحراك الاجتماعى ، خصوصاً وأن مؤهلاتهم لم تكن عالية ، بينما نجد أن نسبة التساقط بين يهود أوكرانيا تصل إلى ٩٠٪ لأن مستواهم المعيشى مرتفع . وإذا نجح يلتسين فى تحقيق الاصلاحات الاقتصادية والانفتاح التجارى الذى يطمح إليه ، فإننا نتصور أن أعداد المهاجرين ستتناقص لأن فرص الحراك الاجتماعى ستتزايد أمامهم .

وبعد الانتفاضة الفلسطينية التى تخلق جواً من عدم الاستقرار السياسى ، وصلت نسبة التساقط بين اليهود السوفييت إلى ٩٠٪

من جملة المهاجرين ، ومع هذا ، أدى انهيار الدولة الاشتراكية السوفيتية وإغلاق الولايات المتحدة أبوابها أمام المهاجرين السوفييت إلى زيادة خروجهم من الاتحاد السوفيتى واستيطانهم فى فلسطين ولكنهم على أية حال ، يذهبون إلى إسرائيل بنية التوجه إلى بلد آخر يحقق لهم طموحهم فى الحراك الاجتماعى ، وذلك عندما تسنح الفرصة .

٢ - وقد ظل يهود ايران يمارسون نشاطهم تحت حكم الشاه ثم خرجوا من إيران بأعداد هائلة بعد قيام الثورة الإيرانية لأنها حاولت أن توجه الاقتصاد وجهة لاتتفق مع معايير الاقتصاد الحر وفى كوبا . كانت هناك جماعة يهودية ، ولكن حينما حدثت الثورة الاشتراكية انخفض العدد إلى العشر ، وذلك على الرغم من أن الثورة الكوبية كانت تتبادل العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل ولم تقف فى طريق النشاط الصهيونى ولم تسىء معاملة اليهود على الإطلاق باعتراف المراجع الصهيونية . ونفس الشىء يقال بالنسبة إلى يهود شيلى الذين تركوها حينما وصل أليندى بتوجهه الاشتراكى إلى الحكم ، وعادوا إليها مع بينوشيه ممثل الفاشية العسكرية ، فارتباط أعضاء الجماعات اليهودية فى كثير من بلاد العالم بنمط إنتاجى معين وبعقلية تجارية محددة ، وامتلاكهم لخبرات إدارية ومهنية معينة ، جعل من العسير عليهم الاستمرار فى المجتمع الجديد ، فهم «ضحايا التأميم» كما يقول أحد المراجع الإسرائيلية ومع تزايد الثورات وعدم الاستقرار السياسى فى

أمريكا اللاتينية ، يلاحظ زيادة هجرة أعضاء الجماعات ونفس الوضع ينطبق على يهود جنوب أفريقيا ، فمع تزايد ثورات السود يتجه أعضاء الجماعة إلى الولايات المتحدة .

٣ - وربما تعود هجرة اليهود من البلاد العربية فى الخمسينيات إلى مركب من الأسباب ،منها قيام الدولة الصهيونية وما خلفته من مشاكل لليهود العرب ، ومنها ارتباط عدد كبير من أعضاء الجماعات اليهودية بالدول الاستعمارية ومما لاشك فيه أن التحول البنيوى الذى خاضته بعض المجتمعات العربية ، مثل المجتمعين المصرى والسورى ، وقيام تجارب تنموية تحت إشراف الدولة ، قد ساهما بشكل عميق فى عملية خروج اليهود ، التى لايمكن رءيتها كظاهرة منفصلة عن خروج جماعات تجارية وسيطة أخرى مثل الإيطاليين واليونانيين من مصر ممن لم يستطيعوا التلاؤم مع إجراءات التمصير والتعريب والتأميم وإلى جانب هذا ، حققت إسرائيل ليهود البلاد العربية المهاجرين قسطاً من الحراك الاجتماعى باعتبار أن المستوى المعيشى فى البلاد العربية أقل منه فى إسرائيل كما ان يهود البلاد العربية لم يكن لديهم الخبرات الكافية المطلوبة فى الولايات المتحدة . ويلاحظ أن عدداً كبيراً من أعضاء نخبتهم الاقتصادية والثقافية هاجرت إلى فرنسا وغيرها من البلاد ذات المستوى المعيشى المرتفع الذى يفوق نظيره فى إسرائيل والتى تتميز باقتصاد متقدم ومن ثم تحتاج إلى خبراتهم ورأسمالهم ومن ناحية أخرى ، هاجرت جماهير يهودية إلى فرنسا

حينما سنحت لها الفرصة ، فقد هاجر إليها معظم يهود الجزائر وأعداد كبيرة من يهود المغرب .

٤ – وفى هذا الاطار ، يمكن تفسير ظاهرة هجرة يهود أمريكا اللاتينية وجنوب أفريقيا إلى الولايات المتحدة ، فالهجرة إلى إسرائيل لن تؤدى إلى أى تحسن فى مستوى معيشتهم كما أن التجمع الصهيونى لن يمكنه استيعابهم بخبراتهم المهنية والإدارية المتقدمة .

٥ – ويلاحظ أن يهود البلاد الغربية (أوربا والولايات المتحدة وكندا) لايهاجرون مطلقاً إلى إسرائيل أو غيرها من البلاد الاستيطانية ، فمثل هذه الهجرة ليس لها ما يبررها وفق نموذجنا التفسيرى –وإن كان يلاحظ أن يهود انجلترا يهاجرون بأعداد متزايدة إلى الولايات المتحدة ، ربما لتفاقم الأزمة الاقتصادية فى انجلترا ، فهى بلد ذات مستقبل اقتصادى مظلم على حد قول أحد المهاجرين البريطانيين اليهود إلى الولايات المتحدة .

٦ – بل ويلاحظ أن هناك هجرة إسرائيلية متزايدة إلى الولايات المتحدة ،شكلت ما يسمى «الدياسبورا الإسرائيلية» يبلغ عددها فى بعض الإحصائيات نصف مليون ومنهم عدد كبير من جيل الصابرا .

٧ – وفى نفس الاطار أيضاً ، يمكن تفسير هجرة أو تهجير يهود الفلاشا تحت ظروف المجاعة ، فهى هجرة سيحققون من خلالها حراكا اجتماعيا كبيراً .

ويمكن القول إن مصادر المهاجرين إلى الدولة الصهيونية أخذة فى النضوب ، فأعضاء أكبر جماعة يهودية فى العالم (فى الولايات المتحدة) لايهاجرون ، ويهود العالم الغربى إن هاجروا يتجهون إلى الولايات المتحدة ويتبع يهود أمريكا اللاتينية وغيرهم نفس النمط وقد تم تصفية يهود العالم الشرقى والإسلامى ، فلم يبق سوى أفراد قلائل وتساهم معدلات الاندماج والزواج المختلط ، وكذلك عزوف اليهود عن الانجاب ، فى تناقص العدد الكلى لليهود وبالتالى فى تناقص العدد المحتمل للمهاجرين ، وهو مايعنى أن الوقود البشرى للكيان الصهيونى لم يعد متوافراً بنفس الكثافة ولم يبق سوى الأحتياطى البشرى الوحيد للكيان الصهيونى فى الاتحاد السوفيتى إلا أن خروج اليهود السوفييت وتوجههم إلى إسرائيل يخضع لنفس النمط الذى اقترحناه : شرق أوربا كمصدر للمادة البشرية ، والولايات المتحدة كمستورد لها ولكن ، كما أسلفنا ، أدى انهيار الدولة الاشتراكية السوفيتية ، وإغلاق باب الهجرة إلى أمريكا ، إلى تحويل هذه الاعداد إلى إسرائيل .

وفيمايلى جدول الهجرات اليهودية منذ عام ١٨٨٢ وحتى عام ١٩٩٣ :

فترة الهجرة	مجموع المهاجرين	آسيا	أفريقيا	أوروبا	أمريكا	غير معروف
١٨٨٢-١٩٠٣	٢٠,٠٠٠-٣٠,٠٠٠					
١٩٠٤-١٩١٤	٣٥,٠٠٠-٤٠,٠٠٠					
١٩١٩-١٩٤٨	٤٨٢,٨٥٧	٤٠,٨٩٥	٤,٠٤١	٣٧٧,٣٨١	٧,٧٥٤	٥٢,٧٨٦
١٩١٩-١٩٢٣	٣٥,١٨٣	١,١٨١	٢٣٠	٢٧,٨٧٢	٦٧٨	٥,٢٢٢
١٩٢٤-١٩٣١	٨١,٦١٣	٩,١٨٢	٦٢١	٦٦,٩١٧	٢,٢٤١	٢,٦٥٢
١٩٣٢-١٩٣٨	١٩٧,٢٣٥	١٦,٢٧٢	١,٢١٢	١٧١,١٧٣	٤,٥٨٩	٣,٩٨٩
١٩٣٩-١٩٤٥	٨١,٨٠٨	١٢,١١٦	١,٠٧٢	٦٢,٩٦٨	١,٠٨	٤,٥٤٤
١٩٤٦-١٩٤٨	٥٦,٤٦٧	١,١٤٤	٩٠٦	٤٨,٤٥١	١٢٨	٥,٨٢٨
١٩٤٨	١٠١,٨٢٨	٤,٧٣٩	٨,١٩٢	٧٦,٥٥٤	٤٧٨	١١,٨٦٥
١٩٤٩	٢٣٩,٩٥٤	٧١,٦٥٢	٣٩,٢١٥	١٢١,٩٦٣	١,٤٢٢	٥,٧٠٢
١٩٥٠	١٧٠,٥٦٣	٥٧,٥٦٥	٢٦,١٦٢	٨١,١٩٥	١,٩٥٤	٣,٦٨٧
١٩٥١	١٧٥,٢٧٩	١٠٣,٣٩٦	٢٠,٣٨٢	٤٧,٠٧٤	١,٢٨٦	٣,١٤١
١٩٥٢	٢٤,٦١٠	٦,٨٦٧	١٠,٢٨٦	٦,٢٣٢	٩٥٠	٢٧٥
١٩٥٣	١١,٥٧٥	٣,٠١٤	٥,١٠٢	٢,١٤٧	٩٣٠	٣٨٢
١٩٥٤	١٨,٤٩١	٣,٣٥٧	١٢,٥٠٩	١,٣٦٩	١,٠٩١	١٦٥
١٩٥٥	٣٧,٥٢٨	١,٤٣٢	٣٢,٨١٥	٢,٠٦٥	١,١٥٥	٦١
١٩٥٦	٥٦,٣٣٠	٣,١٣٩	٤٥,٢٨٤	٦,٧٣٩	١,٠٦٧	١٠١
١٩٥٧	٧٢,٦٣٤	٤,٢٣٠	٢٥,٧٤٧	٣٩,٨١٢	١,٤١٠	١,٤٣٥
١٩٥٨	٢٧,٢٠٠	٧,٩٢١	٤,١١٣	١٣,٦٩٥	١,٣٢٠	٢٤١
١٩٥٩	٢٣,٠٠٠	٣,٥٤٤	٤,٤٢٩	١٤,٧٣١	١,١٤٧	١٣٧
١٩٦٠	٢٤,٠٠٠	١,٧٨٢	٥,٢٧٩	١٦,١٦٩	١,١٥٨	٢٠٤
١٩٦١	٤٧,٧٣٥	٤,١٤٩	١٨,٠٤٨	٢٣,٣٧٥	١,٩٦٩	١٩٤
١٩٦٢	٦١,٥٣٣	٥,٣٥٥	٤١,٨١٦	١١,٨٢٥	٢,١٨٧	٣٥٠
١٩٦٣	٦٤,٤٨٩	٤,٩٦٤	٣٨,٦٧٢	١٤,٢١٣	٦,٤٩٧	١٤٣
١٩٦٤	٥٥,٠٣٦	٥,٠٥٧	١٧,٣٤٠	٢٨,١٢٤	٤,١٨٨	٣٢٧
١٩٦٥	٣١,١١٥	٥,٢٢٣	٨,٥٣٥	١٣,٨٧٩	٣,٠٩٦	٣٨٢
١٩٦٦	١٥,٩٥٧	٣,١٣٧	٣,٠٢٤	٧,٤٣٥	٢,١٣٢	٢٢٩

فترة الهجرة	مجموع المهاجرين	آسيا	أفريقيا	أوروبا	أمريكا	غير معروف
١٩٦٧	١١٤,٤٦٩	١,٩٨٧	٦,٢٦٨	٤,٢٩٥	١,٧٧١	١٤٨
١٩٦٨	٢٠,٧٠٣	٤,٦٧١	٧,٥٦٧	٦,٠٢٩	٢,٢٧٥	١٦١
١٩٦٩	٣٨,١١١	٧,٠١٨	٥,٩٢٦	١٥,٢٣٦	٩,٦٠١	٣٣٠
١٩٧٠	٣٦,٧٥٠	٦,٩٠٤	٣,٧٨٥	١٤,٤٣٤	١١,٤٠٥	٢٢٢
١٩٧١	٤١,٩٣٠	٥,٧٧٨	٢,٣٥٤	٢٠,٨٨٨	١٢,٨٨٥	٢٥
١٩٧٢	٥٥,٨٨٨	٣,١٤٣	٢,٧٦٦	٣٩,١٤٥	١٠,٨١٤	٢٠
١٩٧٣	٥٤,٨٨٦	٢,٠٢٥	٢,٨٣٩	٤٠,٤٩٢	٩,٥٢٢	٨
١٩٧٤	٣١,٩٨١	١,١٧٩	١,٢١٦	٢٣,١٢٦	٦,٤٣٩	٢١
١٩٧٥	٢٠,٠٢٨	٩٢٧	٦٨٩	١٣,٤١٧	٤,٩٨٩	٦
١٩٧٦	١٩,٧٥٤	١,١٣٥	٦٩٧	١٢,١٣٧	٥,٧٧٤	١١
١٩٧٧	٢١,٤٢٩	٩٠٨	١,٦٢٠	١٢,٦٦٠	٦,٢٠١	٤٠
١٩٧٨	٢٦,٣٩٤	١,٧٣٦	١,٦٨٣	١٦,٥٤٩	٦,٣٠٥	١٢١
١٩٧٩	٣٧,٢٢٢	٧,٠٨٧	١,٣٤٠	٢٢,٤٠٤	٦,٠٢٤	٣٦٧
١٩٨٠	٢٠,٤٢٨	٣,٢٠٢	١,٠٠٧	١١,٧٩٢	٤,٣٥٠	٧٧
١٩٨١	١٢,٥٩٩	١,٢١٥	١,١٧٠	٥,٩٠١	٤,٢٤٣	٦٢
١٩٨٢	١٣,٧٢٣	٩٥١	١,٥٥٥	٦,١٦٨	٥,٠٠٣	٤٦
١٩٨٣	١٦,٩٠٦	٨٤٤	٣,٠٩٤	٦,١٥٤	٦,٧٥٨	٥٦
١٩٨٤	١٩,٩٨١	٧٠٠	٨,٨٨٥	٥,٤٨٥	٤,٨٧٦	٣٥
١٩٨٥	١٠,٦٤٢	٦٠٧	٢,٣١٨	٣,٩٦٤	٣,٧٣٩	١٤
١٩٨٦	٩,٥٠٥	١,١٨٣	٩٨٢	٣,٦٧٥	٣,٦٣٤	٣١
١٩٨٧	١٢,٩٦٥	١,٨٨٨	١,٢٠٥	٦,٠٤٤	٣,٨١٢	١٦
١٩٨٨	٢٤,٠٥٠	١,٧٠٠	١,٣٣٤	٦,٠١٢	٣,٩٦٩	١٩
١٩٨٩	٢٤,٠٥٠	١٨٥	١,٨٦١	١٦,٧٦٦	٤,١٤٧	٩١
١٩٩٠	١٩٩,٥١٦	٩٤٠	٤,٤٧٢	١٨٩,٦٥٠	٤,٣١٥	١٣٩
١٩٩١	١٧٦,١٠٠	٦٢٢	٢٠,٢٥١	١٥٢,١٤٢	٣,٠٢٣	٦٢
١٩٩٢	٧٧,٠٥٧	٨٩١	٤,٠٧٥	٦٨,٩٦٣	٣,٠٠٦	١٢٣
١٩٩٣	٧٦,٨٠٥	١,٧٢٨	١,٤٣١	٧٠,٣١٥	٣,٢٨٣	٤٨

ويمكننا الآن أن نتناول الهجرة اليهودية فى إطار الادعاءات الصهيونية التى هيمنت علي العقل العربى والتى تذهب الى أن اليهود يتوجهون إلى فلسطين كلما سنحت لهم الفرصة ، وأن بلاد العالم تمثل بالنسبة لهم أرض الشتات والمنفى ، أما فلسطين فهى أرض الميعاد والعودة .. ولندع الأرقام تتحدث والجدول التالى يتناول هجرة أعضاء الجماعات اليهودية الى فلسطين وغيرها فى كل أرجاء العالم فى الفترة من ١٨٤٠ حتى عام ١٩٤٢ .

السنة	الولايات المتحدة	كندا	الارجنتين	البرازيل	أورجواى	الدول الأخرى فى الأمريكتين	جنوب أفريقيا	فلسطين	الدول الأخرى	الاجمالى
١٨٤٠_١٨٨٠	٢٠,٠٠٠	١,٦٠٠	٢,٠٠٠	٥٠٠	--	١,٠٠٠	٤,٠٠٠	١٠,٠٠٠	٢,٠٠٠	٢٢١,١٠٠
١٨٨١_١٩٠٠	٦٧٥,٠٠٠	١٠,٥٠٠	٢٥,٠٠٠	١,٠٠٠	—	١,٠٠٠	٢٢,٠٠٠	٢٥,٠٠٠	٤,٠٠٠	٧٦٤,٥٠٠
١٩٠١_١٩١٤	١,٣٤٦,٤٠٠	٩٥,٣٠٠	٨٧,٦١٤	٨,٧٥٠	—	٣,٠٠٠	٢١,٣٧٧	٣٠,٠٠٠	١٠,٠٠٠	١,٦٠٢,٤٤١
١٩١٥_١٩٢٠	٧٦,٤٥٠	١٠,٤٥٠	٣,٥٠٣	٢,٠٠٠	١,٠٠٠	٥,٠٠٠	٩٠٧	١٥,٠٠٠	٥,٠٠٠	٨٩,٣١٠
١٩٢١_١٩٢٥	٢٨٠,٢٨٣	١٤,٤٠٠	٣٩,٧١٣	٧,١٣٩	٣,٠٠٠	٧,٠٠٠	٤,٦٣٠	٦٠,٧٦٥	١٠,٠٠٠	٤٢٦,٩٣٠
١٩٢٦_١٩٣٠	٥٤,٩٩٨	١٥,٣٠٠	٣٣,٧٢١	٢٢,٢٩٦	٦,٣٧٠	١٠,٠٠٠	١٠,٠٤٤	١٥,١٧٩	١٠,٠٠٠	١٧٢,٩٠٨
١٩٣١_١٩٣٥	١٧,٩٨٦	٤,٢٠٠	١٢,٧٠٠	١٣,٠٧٥	٣,٢٨٠	١٥,٠٠٠	٤,٥٠٧	١٤٧,٥٠٢	٢٠,٠٠٠	٢٣٨,٢٥٠
١٩٣٦_١٩٣٩	٧٩,٨١٩	٩٠٠	١٤,٧٨٩	١٠,٦٠٠	٧,٦٧٧	١٥,٠٠٠	٤,٣٠٠	٧٥,٤١٠	٦٠,٠٠٠	٢٦٩,٤٩٥
١٩٤٠_١٩٤٢	٧٠,٩٥٤	٨٠٠	٤,٥٠٠	٦,٠٠٠	١,٠٠٠	٢,٠٠٠	٢,٠٠٠	٣٥,٠٠٠	١٠,٠٠٠	١٣٢,٣٥٤
المجموع	٢,٨٠١,٨٩٠	١٥٣,٤٥٠	٢٣٣,٥٤٠	٧١,٣٦٠	٢٢,٣٢٧	٥٩,٠٠٠	٧٥,٧٦٥	٣٦٨,٩٥٦	١٣١,٠٠٠	٣,٩١٧,٣٨٨

يلاحظ من الجدول السابق أنه من مجموع ٣.٩١٧,٢٨٨ من المهاجرين لم يتجه سوى ٣٧٨.٩٥٦ إلى فلسطين فى فترة مائة عام تمتد من ١٨٤٠ حتى عام ١٩٤٢ وذلك برغم كل النشاط الاستعمارى والصهيونى المكثف ، ومن الطريف أن هذا العدد مساو تقريبا لعدد اليهود الذين اتجهوا إلى أمريكا اللاتينية فى نفس الفترة «٣٧٦.٢٢٧» بفارق ٢.٦٢٩ يهوديا . ولو استبعدنا الهجرة فيما بعد عام ١٩٣١ حيث أغلقت أمريكا اللاتينية أبوابها ، فسنكتشف أن عدد المهاجرين إلى أمريكا اللاتينية كان ٢٧٠.٦٠١ فى مقابل ١٢٥,٩٤٤ إلى فلسطين . بل إن بلدا واحدا مثل الارجنتين هاجر اليه ١٩١,٥٥١ أى أكثر من كل الذين هاجروا إلى فلسطين فى نفس الفترة «وبحسب احصائيات روبين، كان يوجد فى الارجنتين فى عام ١٩٣٠ نحو ٢٢٠ ألفا و ٢٩١ ألفا فى أمريكا اللاتينية كلها» كما أن بلدا مثل كندا كان يضم ١٥٠ ألف يهودى فى عام ١٩٣٠ بينما كانت فلسطين لاتضم سوى ١٧٠ ألفا . ولكن التحدى الأكبر لأرض الميعاد كان يأتى من البلد الذهبى أو «الجولدن مدينا» أى الولايات المتحدة . ففى الفترة التى نشير اليها، هاجر الى الولايات المتحدة ٢.٨٠١.٨٩٠ فى مقابل ٣٧٨.٩٥٦ هاجروا إلى فلسطين .

عدد المهاجرين اليهود إلى كل من الولايات المتحدة وفلسطين فى الفترة ١٩١٥ ـ مايو ١٩٤٨

السنة	الولايات المتحدة	فلسطين	السنة	الولايات المتحدة	فلسطين
١٩١٥	٢٦.٤٩٧	ـ	١٩٣٢	٢.٧٥٥	١٢.٥٥٣
١٩١٦	١٥.١٠٨	ـ	١٩٣٣	٢.٣٧٢	٣٧.٣٣٧
١٩١٧	١٧.٣٤٢	ـ	١٩٣٤	٤.١٣٤	٤٥.٢٦٧
١٩١٨	٣.٦٧٢	ـ	١٩٣٥	٤.٨٣٧	٦٦.٤٧٢
١٩١٩	٣.٠٥٥	١.٨٠٦	١٩٣٦	٦.٢٥٢	٢٩.٥٩٥
١٩٢٠	١٤.٢٩٢	٨.٢٢٣	١٩٣٧	١١.٣٥٢	١٠.٦٢٩
١٩٢١	١١٩.٠٣٦	٨.٢٩٤	١٩٣٨	١٩.٧٣٦	١٤.٦٧٥
١٩٢٢	٥٣.٥٢٤	٨.٦٨٥	١٩٣٩	٤٣.٤٥٠	٣١.١٩٥
١٩٢٣	٤٩.٧١٩	٨.١٧٥	١٩٤٠	٣٦.٩٤٥	١٠.٦٤٣
١٩٢٤	٤٩.٩٨٩	١٣.٨٩٢	١٩٤١	٢٣.٧٣٧	٤.٥٩٢
١٩٢٥	١٠.٢٩٢	٣٤.٣٨٦	١٩٤٢	١٠.٦٠٨	٤.٢٠٦
١٩٢٦	١٠.٢٦٧	١٣.٨٥٥	١٩٤٣	٤.٧٠٥	١٠.٠٦٣
١٩٢٧	١١.٤٨٣	٣.٠٣٤	١٩٤٤	١٥.٥٥٢	
١٩٢٨	١١.٦٣٩	٢.١٧٨	١٩٤٥	١٥.٢٥٩	
١٩٢٩	١٢.٤٧٩	٥.٢٤٩	١٩٤٦	١٨.٧٦٠	
١٩٣٠	١١.٥٢٦	٤.٩٤٤	١٩٤٧	٢٢.٠٩٨	
١٩٣١	٥.٦٩٢	٤.٠٧٥	١٩٤٨	١٧.١٦٥	

ويلاحظ من الجدول السابق أن الولايات المتحدة استوعبت نحو ٢,٠٠٠,٠٠٠ مهاجر يهودى من مجموع المهاجرين اليهود البالغ عددهم ٢,٦٥٠,٠٠٠ والذين أتوا أساسا من أوربا الشرقية ثم الوسطى ، أى أنها استوعبت حوالى ٨٦٪ من مجموع المهاجرين اليهود . وقد استقر نحو ٣٥٠ ألف مهاجر يهودى فى أوربا الغربية، ونحو ٣٠٠ ألف فى باقى بلدان العالم، واستوعبت كندا نحو ٤٪ والارجنتين ٥٪ وجنوب أفريقيا ٢٪ . ولم يستوطن فى فلسطين سوى ٥٠ ألفا ، أى حوالى ٢٪ من مجموع المهاجرين.

وقد استمر الوضع على ذلك فى الفترة ١٩١٥ - ١٩٣١ ، أى قبل ظهور هتلر ، إذ استوعبت الولايات المتحدة ٥٥٪ من مجموع ٧٦٠ ألف مهاجر يهودى واستوعبت كندا ٦٪ ، والارجنتين ١٠٪ ، واستوعبت بلدان امريكا اللاتينية الأخرى ٩٪ ، وجنوب افريقيا ٢٪، والبلاد الأخرى ٣٪. ولم يستوطن فى فلسطين سوى ١٥٪ على الرغم من أنه لم تكن توجد آنذاك قيود على الاستيطان فيها .

ولم يحدث أى تغيير إلا بعد إغلاق أبواب الهجرة إلى الولايات المتحدة ثم إلى بلاد الاستيطان الأخرى فى أوربا وامريكا اللاتينية وجنوب افريقيا .

وقد بلغ الاستيطان اليهودى فى فلسطين ذروته فى الفترة بين عامى ١٩٣٢ و ١٩٣٩ ، حيث استوطن فى فلسطين حوالى ٤٦٪ من مجموع المهاجرين اليهود البالغ عددهم ٥٤٠ ألفا ، ولم يستوطن فى الولايات المتحدة سوى ٢٠٪ وقد بلغ عدد المستوطنين

الصهاينة فى الفترة ١٩٣١ - ١٩٣٥ ، أى فى أربعة أعوام ، حوالى ١٤٧,٥٠٢ (١٦٥,٧٠٤ بحسب تقديرات الموسوعة اليهودية) وهو عدد يساوى عدد كل المستوطنين الموجودين بالفعل والذين كانوا قد استوطنوا فى فلسطين فى خلال الفترة من عام ١٨٨٢ إلى عام ١٩٣٠ . وفى الفترة من عام ١٩٣٦ إلى عام ١٩٣٩ ، هاجر ٧٥,٥١٠ (تذكر الموسوعة اليهودية هذا الرقم على أنه ٨٦,٠٩٤).

وشهدت الفترة بين عامى ١٩٤٠ و ١٩٤٨ تحولا طفيفا فى نمط الهجرة إذ اتجه ١٢٥ ألف مهاجر يهودى من مجموع ٣٠٠ ألف ، أى ٤٢٪ من مجموع المهاجرين ، إلى الولايات المتحدة، واتجه الى فلسطين ١٢٠ ألفا أى ٤٠٪ فقط. وقد أدى هذا إلى ظهور كثافة سكانية يهودية فى فلسطين لم تكن موجودة قبل وصول هتلر الى الحكم، فكأن الفوهرر نجح فى خلال ثمانية أعوام ، عن طريق خلق الظروف الموضوعية لهجرة اليهود من أوربا ، فى إنجاز ما لم تنجح الحركة الصهيونية والاستعمار العالمى فى إنجازه فى نصف قرن (١٨٨٢ - ١٩٣١) ، أى أن الصهيونية الموضوعية البنيوية أكثر كفاءة وفعالية من الصهيونية العقائدية . فقد هاجر فى تلك الفترة نحو ثلاثة ملايين يهودى من وطنهم الأصلى ولم تتجه سوى قلة منهم إلى فلسطين . ومع هذا ، لا يمكن انكاردور الصهيونية والاستعمار فى خلق هذا الموقف الصهيونى البنيوى، والواقع أن الدول الغربية، بما فى ذلك الولايات المتحدة، أوصدت بابها دون اللاجئين اليهود وغير اليهود بسبب ظروف الكساد الاقتصادى.

أما الصهاينة ، فقد أبرموا مع النازيين معاهدة الهعفراه التى ساهمت فى توجيه هجرة يهود ألمانيا إلى فلسطين بحيث يتحولون إلى مستوطنين . وقد سمحت لهم السلطات الألمانية بأخذ جزء كبير من ثرواتهم معهم .

ويمكننا أن نخلص من ذلك إلى أن فلسطين لا تمثل أى نقطة جذب بالنسبة إلى يهود العالم، وإلى أن اليهود هاجروا إليها بسبب عوامل الطرد الحادة فى أوربا وعدم وجود منافذ أخرى لا بسبب عوامل الجذب فيها .

ولعل الاستثناء الأساسى الآخر للنمط العام لهجرة أعضاء الجماعات اليهودية فى العصر الحديث هو الفترة الممتدة من ١٩٤٨ حتى أواخر الخمسينيات ، حيث قامت الحركة الصهيونية بحركة ضغط هائلة لنقل اللاجئين اليهود من ضحايا الحرب العالمية الثانية إلى فلسطين . وفى نفس الفترة ، أدى إعلان الدولة اليهودية، ونشاط العملاء الصهاينة، وجهل بعض الحكومات العربية، إلى خلق وضع متوتر بالنسبة لأعضاء الجماعات اليهودية فى العالم العربى الإسلامى ، فهاجرت أعداد كبيرة منهم واستوطنت فى فلسطين . وعلى أية حال ، يمكن رؤية حركة الهجرة اليهودية من البلاد العربية إلى فلسطين على أنها أيضا حركة هجرة إلى فلسطين باعتبارها البلدة الذهبية اليهودية وليس باعتبارها أرض الميعاد . والهدف ليس خلاص الروح، بطبيعة الحال، وإنما تحقيق الحراك الاجتماعى . فالعرب اليهود لم تمكنهم

ظروفهم الحضارية والاقتصادية ، ولا خبراتهم ، من الهجرة الى أوربا والولايات المتحدة، فهاجروا إلى إسرائيل لتحقيق الحراك الاجتماعى الذى فشلوا فى تحقيقه بالدرجة التى يطمحون إليها داخل مجتمعاتهم العربية. ويُلاحظ أن عدداً كبيراً من أعضاء النخبة الاقتصادية والثقافية هاجروا إلى فرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية، كما هاجر يهود الجزائر إلى فرنسا لأن ظروفهم سمحت بذلك .

وبعد تصفية هذه الكتلة البشرية اليهودية، يعود نمط الهجرة بين أعضاء الجماعات اليهودية إلى سابق عهده ، أى يتجه اليهود مرة أخرى إلى الولايات المتحدة التى أصبحت نقطة جذب كما كانت من قبل . ومن ثم ، نجد أن الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفيتى تواجه مشاكل عميقة - من المنظور الصهيونى - لأن المهاجرين يغيرون اتجاههم فى النمسا أو فى أية محطات انتقالية أخرى، وبدلا من أن يتوجهوا إلى فلسطين المحتلة ليصبحوا مستوطنين صهاينة يتجهون إلى الولايات المتحدة ليصبحوا مهاجرين وحينما هاجر يهود الجزائر فى عام ١٩٦٥ ، ويهود أمريكا اللاتينية منذ الستينيات وحتى الآن ، ثم يهود إيران ، فإنهم لم يتجهوا إلى فلسطين وإنما إلى فرنسا والولايات المتحدة ، ويلاحظ أن يهود جنوب أفريقيا يتجهون أيضاً إلى الولايات المتحدة، وربما إلى جيوب استيطانية أخرى مثل أستراليا - ولقد بدأ المستوطنون الصهاينة أنفسهم يتبعون هذا النمط ويبلغ أعضاء

أما الصهاينة ، فقد أبرموا مع النازيين معاهدة الهعفراه التى ساهمت فى توجيه هجرة يهود ألمانيا إلى فلسطين بحيث يتحولون إلى مستوطنين . وقد سمحت لهم السلطات الألمانية بأخذ جزء كبير من ثرواتهم معهم .

ويمكننا أن نخلص من ذلك إلى أن فلسطين لا تمثل أى نقطة جذب بالنسبة إلى يهود العالم، وإلى أن اليهود هاجروا إليها بسبب عوامل الطرد الحادة فى أوربا وعدم وجود منافذ أخرى لا بسبب عوامل الجذب فيها .

ولعل الاستثناء الأساسى الآخر للنمط العام لهجرة أعضاء الجماعات اليهودية فى العصر الحديث هو الفترة الممتدة من ١٩٤٨ حتى أواخر الخمسينيات ، حيث قامت الحركة الصهيونية بحركة ضغط هائلة لنقل اللاجئين اليهود من ضحايا الحرب العالمية الثانية إلى فلسطين . وفى نفس الفترة ، أدى إعلان الدولة اليهودية، ونشاط العملاء الصهاينة، وجهل بعض الحكومات العربية، إلى خلق وضع متوتر بالنسبة لأعضاء الجماعات اليهودية فى العالم العربى الإسلامى ، فهاجرت أعداد كبيرة منهم واستوطنت فى فلسطين . وعلى أية حال ، يمكن رؤية حركة الهجرة اليهودية من البلاد العربية إلى فلسطين على أنها أيضا حركة هجرة إلى فلسطين باعتبارها البلدة الذهبية اليهودية وليس باعتبارها أرض الميعاد . والهدف ليس خلاص الروح، بطبيعة الحال، وإنما تحقيق الحراك الاجتماعى . فالعرب اليهود لم تمكنهم

ظروفهم الحضارية والاقتصادية ، ولا خبراتهم ، من الهجرة إلى أوربا والولايات المتحدة، فهاجروا إلى إسرائيل لتحقيق الحراك الاجتماعى الذى فشلوا فى تحقيقه بالدرجة التى يطمحون إليها داخل مجتمعاتهم العربية. ويُلاحظ أن عدداً كبيراً من أعضاء النخبة الاقتصادية والثقافية هاجروا إلى فرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية، كما هاجر يهود الجزائر إلى فرنسا لأن ظروفهم سمحت بذلك .

وبعد تصفية هذه الكتلة البشرية اليهودية، يعود نمط الهجرة بين أعضاء الجماعات اليهودية إلى سابق عهده ، أى يتجه اليهود مرة أخرى إلى الولايات المتحدة التى أصبحت نقطة جذب كما كانت من قبل . ومن ثم ، نجد أن الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفيتى تواجه مشاكل عميقة – من المنظور الصهيونى – لأن المهاجرين يغيرون اتجاههم فى النمسا أو فى أية محطات انتقالية أخرى، وبدلا من أن يتوجهوا إلى فلسطين المحتلة ليصبحوا مستوطنين صهاينة يتجهون إلى الولايات المتحدة ليصبحوا مهاجرين وحينما هاجر يهود الجزائر فى عام ١٩٦٥ ، ويهود أمريكا اللاتينية منذ الستينيات وحتى الآن ، ثم يهود إيران ، فإنهم لم يتجهوا إلى فلسطين وإنما إلى فرنسا والولايات المتحدة . ويلاحظ أن يهود جنوب أفريقيا يتجهون أيضاً إلى الولايات المتحدة، وربما إلى جيوب استيطانية أخرى مثل أستراليا – ولقد بدأ المستوطنون الصهاينة أنفسهم يتبعون هذا النمط ويبلغ أعضاء

الدياسبورا الإسرائيلية فى الولايات المتحدة نحو ٧٥٠ ألفاً . حيث يزيد عدد النازحين من إسرائيل إلى الولايات المتحدة على عدد اليهود الذين يذهبون إلى الدولة الصهيونية للاستيطان .

ويدل تدفق الهجرة اليهودية على وطن الاقتصاد الحر والفرص الاقتصادية بعيداً عن «أرض الميعاد» على أن حركيات التاريخ وتركيبية النفس البشرية تؤكد نفسها على الدوام وتكتسح فى طريقها كثيراً من التحيزات العقائدية الاختزالية ولتزويد الكيان الصهيونى بالمادة القتالية اللازمة لاستمرار اضطلاعه بدوره القتالى ، أغلقت الولايات المتحدة أبوابها أمام المهاجرين السوفييت حتى يضطروا إلى التدفق صاغرين إلى الدولة الصهيونية كما تمارس المنظمة الصهيونية شتى أنواع الضغط على ألمانيا لكيلا تفتح أبوابها أمام المهاجرين السوفييت الذين يقرعون أبوابها كما أنها تعلن عن شتى المغريات المالية للمهاجرين الجدد . وعلى كل بعد تدفق نصف مليون يهودى روسى على إسرائيل وليس الملايين التى تحدث عن الاعلام العالمى أى الغربى والعربى على مدار عشرة أعوام تقريبا ، نضبت منابع المادة البشرية الاستيطانية فى شرق أوربا خاصة العناصر الشابة الراغبة فى الهجرة والقادرة عليها وسيعود النمط القديم ليؤكد نفسه ، أى تدفق اليهود على أرض الميعاد الذهبية الأمريكية، إلى أو أى أرض ميعاد أخرى تحقق لهم الحراك الاجتماعى .

وبدلاً من تسمية الظواهر بأسمائها ، تشير الأدبيات

الصهيونية إلى الهجرة اليهودية إلى الولايات المتحدة أو إلى العالم المتقدم أو الحر بما يسمونه «الشتات الجديد» ونشير إلى ذلك بأنه «الدياسبورا الدائمة» .

الدياسبورا الدائمة
Permament

«الدياسبورا الدائمة» مصطلح قمنا بصكه لنصف وضع أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم ، إذ أنه على الرغم من كل الادعاءات الصهيونية ورغم استخدام مصطلح «الدياسبورا» لوصف وضعهم ، فإن غالبيتهم تؤثر البقاء خارج فلسطين فى المنفى . فالدياسبورا أو الشتات اليهودى مسألة طوعية وليست مسألة مرتبطة بعملية قسر خارجية . وحالة الدياسبورا أو الانتشار هى حالة دائمة بغض النظر عما يحدث فى فلسطين بل إن اتجاه بعض اعضاء الجماعات اليهودية إلى فلسطين للاستقرار فيها ، أحيانا ينبع من حركيات لاعلاقة لها بصهيون .

وفيما يلى جدول باعداد أعضاء الجماعات اليهودية ، فى فلسطين المحتلة والعالم يدل على أن الدياسبورا حالة دائمة نهائية بالفعل .

اعداد اليهود في فلسطين المحتلة والعالم

سنة	عددهم فى فلسطين	نسبتهم ليهود العالم
١٨٨٢	٢٤ ...	٠.٣٪
١٩٠٠	٥٠....	٠.٥٪
١٩٢٥	١٢٢....	٠.٨٪
١٩٤٠	٤٦٧....	٢.٨٪
١٩٤٨/١٠/٥	٦٥٠....	٥.٧٪
١٩٥١	١.٤٠٤....	١٢.٢٪
١٩٦٥	٢.٢٩٩....	١٧.١٪
١٩٧٥	٢.٩٥٩....	٢٠.٩٪
١٩٨٠	٣.٢٨٢.٧٠٠	٢٥٪
١٩٨٥	٣.٥١٠....	٢٧٪

أى أن ربع الشعب اليهودى وحسب قد قرر الاستيطان فى فلسطين مما يعنى أن أغلبيته الساحقة قد آثرت العيش فى «المنفى» على الرغم من أن الدولة الصهيونية قد فتحت أبوبها على مصراعيها أمامهم كل هذا يعنى فى واقع الأمر أن المنفى ليس بمنفى . وأن ارض الميعاد والعودة ليست أرضا للميعاد أو للعودة رغم كل الادعاءات الصهيونية .

الفهـــرس

رقم الايداع

٩٦/١٦٢٦

I. S. B. N.

977-07-0450-4